قاسم مسعد عليوة

غير المألوف

قصص قصيرة

١٩٩٩

غير المألوف

قصص قصيرة

قاسم مسعد عليوة

الطبعة الأولى : ٨ مايو ١٩٩٥

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الطبعة الثانية : ٢١ يونيو ١٩٩٩

المستقبل للطباعة والنشر

رقم الإيداع : ٥٢٥٢ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 19 - 8528 - 0

إلى أخي الحبيب
الشاعر السيناوي النجيب
حاتم عبد الهادي
مع خالص امتناني وتقديري

المخلص
د. محمد سعد عليوة

غير المألوف

٢٢/٩/١٩٩٩

تصميم الغلاف للفنان : عباس الطرابيلى

الاهداء :

إلى الذين يعايشون المألوف

ويتوقون إلى الخلاص منه.

قاسم مسعد عليوة

معها

التقيتُ بها خارج المدرج . سمراء، طويلة العنق، جعدة. تخفى بلوزتها البيضاء نهدين متوثبين. قبَّلَتْ منقار اليمامة التى حطت على سياج الممر وقالت : أريد أن أمشى معك فهل تمانع؟.

ألجمتنى المفاجأة، وكنت محنقا من الدكتور الذى أصر على أن شراء جميع كتبه شرط أساسى للنجاح فى المادة التى يدرسها. لم تسعفنى الكلمات فنظرتُ إليها وإلى اليمامة التى ظلت مكانها لا تريم. قالت: أنا من القسم المجاور، ودائما ما أراك تدخل هذا المدرج، ثم أحنتْ رأسها لليمامة وأومأت لها فطارت. وفيما أتابع طيرانها الرشيق، أفقت عليها تقول: أنت وشأنك، وضغطتْ ذقنها بطريقة محببة، وهمت بالاستدارة فجفلتُ وتقدمتُ خطوتين، ولمستُ مرفقها. ابتسمتْ: استسلم. فابتسمتُ، واستسلمتُ.

حدثتنى عن متابعتها لى، وعن التعليم والأساتذة ونظم الامتحانات، عن الفتيات بليدات الحس وعن الفتيان، عن الحب والمحاسبة التى تدرسها والإدارة التى أدرسها، عن أستاذ الاحصاء وضابط البحرية وتاجر الخمور المغشوشة.

أركبتنى معدية القناة التى عبرتْ بنا بين ناقلات البترول وحاويات البضائع والبوارج الحربية، وحدثتنى عن الفرق بين

أدخنة البواخر ودخان المصنع الذى يساقط على منزلها ويلوث غسيل أمها، وعن تمثال ذلك الفرنسى الذى يرفض المثقفون عودته، وعن قناديل البحر والرفاصات التى تمزقها. وأفاضت فى الحديث عن خطاف البحر والسمان والنوارس والدلافين التى يشكو أبوها من اختفائها.

وفيما أتابع تدفق سلسال السحر المنغم من فيها، لمحتُ على طرف إحدى البوارج بحارا يسحب سرواله القصير ويبول على مياه القناة فيطير الهواء بوله رذاذا واهناً لا يلبث أن يذوب فى الضوء. نهضتُ من فورى وسددت النافذة بجسمى حتى لا تراه، فيما ظلت تحدثنى عن الخلول والبكلويز والمحارات التى أصبحت لا تؤكل، وعن غراب البحر والبشاروش وأسراب الغرانيق التى لا تأتى إلى أمواهنا.

أحسستُ بها تفيض جمالا وأنوثة، وأسرنى حديثها الذى يشع سحرا وغرابة. ولما هبطنا إلى الضفة الأخرى قالت: أعتقد أن الأمور يجب أن تنقلب رأسا على عقب. من السخف أن تنتظر البنت الولد حتى يتقدم لها، لا أريد شابا بليد الحس كذابا. أو ممن يزحفون على بطونهم ليقتنصوا فراشاتهم. وابتسمتْ ثم ضحكتْ. بورقة أو

بدون ورقة.. وأدارت رأسها فضبطتنى أنظر إليها. لا تنظر إلى هكذا، وإلا اعتقدتْ أنك واحد من هؤلاء البلهاء.

وسرنا بحذاء سور الميناء: أنا لا أحب مدخنى السجائر وماضغى اللبان. إنهم يملؤن المدرجات وترابيزات البوفيه، ويتناثرون فى الأحواش والممرات، ويستعرضون فحولاتهم الجنسية، لو فكرت فى أن حياتى سوف ترتبط بواحد من هؤلاء فإننى سأقتل نفسى. لا أحب التصنع، وأحتقر زميلاتى اللاتى يعشقن أدوات التجميل ومزيلات الشعر. انظر، أنا لا أضع المانيكير، ولا أستعمل الكريمات، ولا أزيل الشعر بالسكر والليمون، وكشفت عن ساقيها. فرأيتُ الزغب أصفر ولامعا. ضحكتْ وأسدلتْ جوبتها. لا تظن أننى أغويك. ورشقتْ واحدا، وقف ليستطلع، بنظرة نارية، انحدرت بى إلى الشوارع الهادئة المفضية الى البحر، واندفعتْ تجرى قليلا ثم عاودت التمهل. أنت لا تتفاخر بسلسلة ذهبية يتدلى منها مفتاح السيارة، ولا تدخن، لا تمضغ لبانا، لا تذهب إلى البوفيه، ولست متطرفا فى آرائك السياسية. رأيتك وأنت تناظر أساتذتك. وضحكتْ: .. لكنهم غلبوك يا فالح. وسرحت بعينيها إلى حيث تلتقى زرقة البحر بزرقة السماء، تتبعتك إلى هذا الشاطىء

مرارا، إنه شاطئى أيضا. أنت تعيش حياتك بجد، وهذا النوع من الفتيان أحبه.

لم أتمالك، فتلقفتُ كفيها بين كفىَّ، لكنها سحبتهما برقة وعادت للضحك، وهى تدور من حولى، ثم فردتْ ذراعيها وراحت تعدو وأنا خلفها حتى لامس الماء أقدامنا، سألتنى: وماذا عنك؟ قلتُ: لا شىء، قفى أولا، قالت: لن أقف، إلحك. قلتُ: عن أى شىء؟ قالت وهى تسرع فى الجرى: عن نفسك، عن أهلك، عن الجامعة. قلتُ: أخى مات فى آخر حرب، وأمى ماتت بالحسرة، وأبى قال يوما كلاما فى السياسة فأخذوه وأعادوه شيئا آخر. قالت: فقط؟ قلت: فقط. ورأيتها بأم عينى تحلق فى الهواء فحاولتُ مجاراتها. لدهشتى وجدتنى أعلو عن الأرض وأحلق أنا الآخر، كانت قد التحقتْ بسرب من النوارس فلحقتُ بها، دفَّتْ بذراعيها ومادت فمدتُ معها، سألتنى وأجنحة النوارس تكاد تتلاحم من خلفها: ما رأيك؟ .. أتريد العودة إلى الشط؟..

امرأة ... ورجل

هى امرأة عادية وهو رجل لحيم.

أمام البحر قالت: نجرى وننط الحبل ونلعب راكيت. وقال: نجلس ونحفر الرمال أو نكومها وندفن نفسينا. قالت: أنت وشأنك. قال: أنت وشأنك.

تقافزتْ صوب ملايين الأصداف التى تسقطها الشمس، وضحكتْ لأنها تذوب كل مرة فى قبضتها. قهقهتْ: قم ولاعبنى .. تثاءب: تعالى وادفنى نفسك إلى جوارى. نظرتْ إلى وجهه المُعَرَّق، وتلة الرمل التى تغطيه من إخمص قدميه حتى ذقنه، وهزتْ كتفيها وراحت تتقافز من حوله، تتباعد وتقترب وتنط الحبل وتلاعب نفسها بالكرة، أحيانا بمضرب واحد، وأحيانا بمضربين.

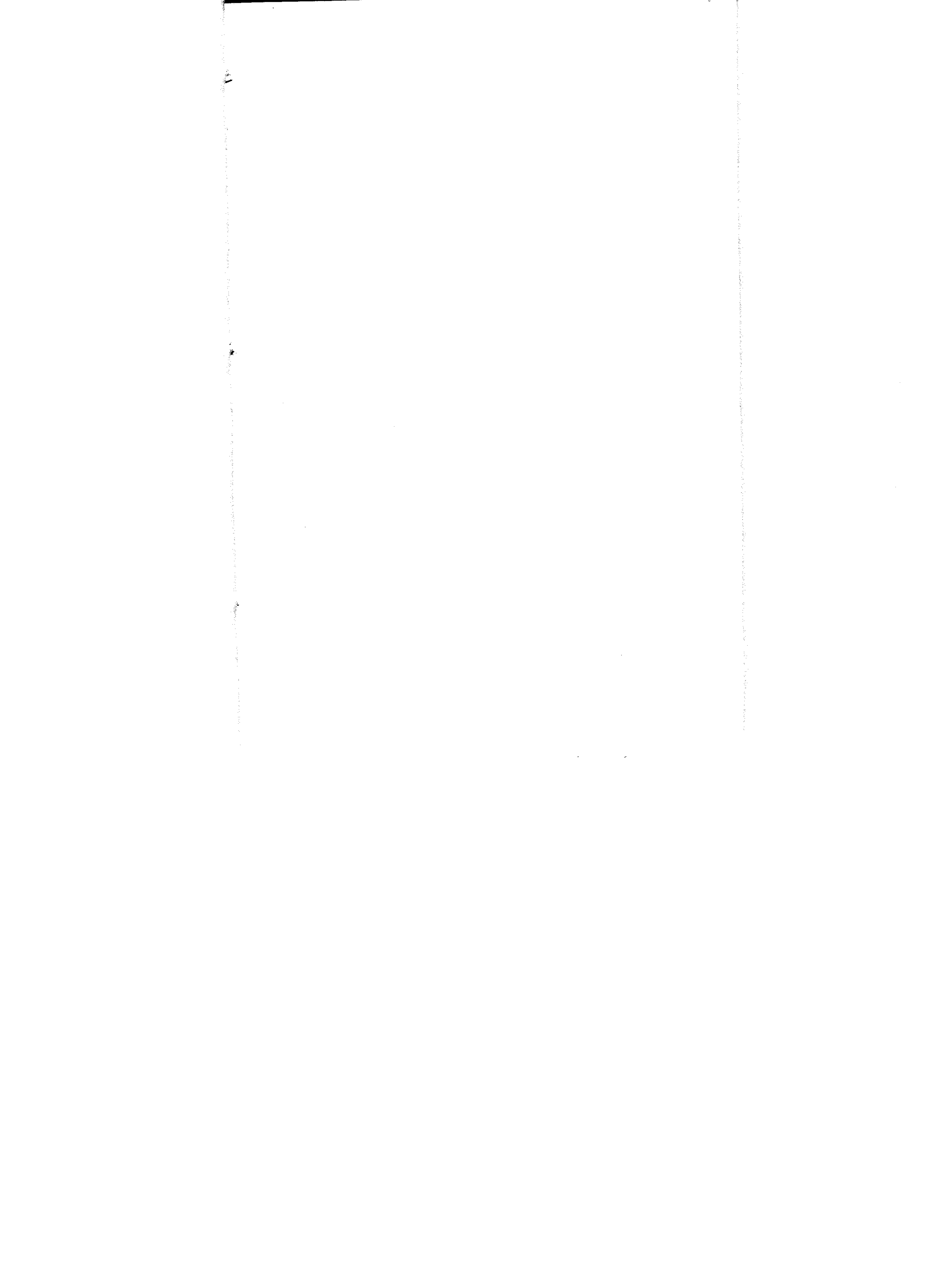
عند الظهر، قالت: تأكل؟ قال: آكل، فأمسكتْ بعلبة المربى وقطع الخبز وأخذتْ تلقمه فى فمه، وهو يعاكسها بتبديل ملامحه وتلعيب حواجبه، حتى شبع. وبغطاء التُرْمُس سكبتْ الماء المثلج فى فمه حتى ارتوى.

عند العصر، قالت: سأستحم وأجرى، فقال: اسحبى القبعة على وجهى لتقينى لفح الشمس، سحبتها وخلعت ثوبها وقفزت إلى

البحر. جدفت بذراعيها وغطست وعابثت النوارس من فوقها وخرجت إلى الشاطىء. بنَتْ بيوتا ثم دهستها وجرت صوب قرص الشمس.

عند الغروب، أعادت ثوبها واقتلعتْ المظلة والأشياء التى جاءا بها وسحبت القبعة عن وجهه وأزاحت الرمل عن صدره وأنهضته، غير أنها لم تجد ساقيه، فكتمتْ صرختها، فيما تدلت مئات السراطين المتزاحمة أسفل فخذيه وما بينهما.

نـــافــــذة



« إلى النجم الذى غادر سمائنا ..

إلى القاص مصطفى حجاب »

ها هو الضوء يقص فى عتمة الجدار مستطيلا ذهبيا. وها هو ظلها يتماوج داخل الغرفة ثم يستقيم مشدودا متوثبا داخل الإطار الذهبى. انظر وراءك، هناك حيث سواد البحر. أنت لا ترى شيئا، لكنك تحس باندفاقة الهواء، وتُحدس بأن ثمة شيئا يندفع من فوقنا. عندما يتخطى هذا الشىء رمال الشاطىء سوف تكشف لك المصابيح المغروزة على جانبى الأسفلت الكثير. انظر .. ها هى أضواء الصوديم تكشف لك عن خفقات الأجنحة وامتداد الساقين الحمراوين واستقامة الرقبة النحيلة. ها أنتذا تهتف بها. إنه طائر البشاروش. يدف بجناحيه وينساب بلا صوت ويحط على حافة النافذة. انظر إليها وقد مدت ذراعيها إليه لتحتضنه. ها أنتذا ترى مثلى تموج شعرها الأثيث، ونزقة الثديين إذ تميل إليه ويميل إليها، وذهب الغرفة إذ يحتويهما. تماسك، فها هى تثب إلى الحافة وتجاوره، وما هى إلا لحظات حتى تراهما يدفان فى الهواء ويندفعان صوب البحر. انظر إليهما وهما يعبران من فوقك. كم هما جميلان ورشيقان. استدر الآن وتابعهما إذ يذوبان فى ظلمة البحر. أين ذهبا؟ متى يعودان؟. لا أعرف. ولن تعرف .. ما أعرفه، أنك

لو جئت كل ليلة فسترى ما رأيته الآن بالضبط.

وتركنى صديقى لحيرتى وانصرف.

غطتنى أنداء الفجر ولم يعودا. ظهر قرص الشمس وارتفع. قلتُ: صديقى شاعر وأنا رجل واقعى ولا تنقصنى الجسارة. وجمعتُ شتات نفسي وصعدتُ السلم. عند الطابق الذى خمنتُ أن الشقة تقع فيه جازفتُ وطرقتُ الباب ففتح لى رجل جهم.

سأل بجفاء: نعم؟

قلتُ: أنا عامل التليفون.

قال: ليس عندنا تليفون.

قلتُ: جئت لأتأكد أنه ليس لدكم بالفعل تليفون.

وأزحته بهدوء ودخلتُ إلى الأنتريه وأنا أرتجف، ثم جُسْتُ فى بعض الغرف إلى أن دخلتُ غرفة أيقنتُ أنها غرفتها، فترتيبها، وكل زاوية فيها تدل على رقة مشاعر صاحبتها. ولشد ما أُخذتُ حينما لمحت مثبتا على الحائط، فوق الشوفينيرة، لوحةً ضخمة لطائر البشاروش، وأمامها فازة نحيلة تطل منها وردة بلاستيكية حمراء وحيدة.

حينما خرجتُ من غرفتها رأيتها جالسة برقتها وشحوبها فى الأنتريه وقد وضعتْ كفيها فى حجرها وانسدل شعرها بطوله على

جانب وجهها. هممتُ بتحيتها، إلا أن الرجل وقف بينى وبينها وسلط عينيه فى عينى.

- تأكدتَ؟

وقادنى إلى الباب حيث لمحتُ سوطا معلقا فى الحائط إلى جوار صورته وهو فى عنفوان شبابه.

على السلم، لمتُ نفسى لأننى سَهَّلتُ على الرجل مهمة التخلص منى فرجعت وطرقت الباب.

سده بجسمه تماما، فقلتُ: بإمكانى تسهيل تركيب تليفون لك، ونظرتُ من تحت إبطه فإذا بها فى جلستها لا تريم.

قال: لا أريد أى تليفون.

قلتُ: يمكن إدخال التوصيلة مباشرة من البوكس إلى الشقة عبر تلك النافذة.

زفر: أية نافذة؟

أشرت وعينى عليها: نافذة تلك الغرفة.

دفعنى بغلظة: يا أستاذ بيتنا بلا نوافذ.

وطرق الباب، فيما رحتُ أتعجب كيف لم ألحظ ذلك وأنا فى غرفتها. وجريتُ مهرولا إلى بيت صديقى.

الممثل العظيم س.ج.



(س.ج.) ممثل ذائع الصيت، يحظى بحب الجمهور واحترامه، وهذا ما دفعه إلى التفكير بصورة جدية فى خوض المعركة الانتخابية القادمة، مؤملا فى الحصول على مقعد فى مجلس الشعب. وهو ممثل من نوع خاص، قلما تجود بمثله الأيام، ونادرا ما تشهد مثله خشبات المسارح والاستوديوهات. فهو لا يكتفى بقراءة السيناريوهات ونصوص المسرحيات المقدمة إليه، وإنما يدرسها ويستذكرها ويحفظها عن ظهر قلب، لدرجة أنه أصبح يمتلك تلك القدرة المذهلة على التنبؤ بما عساه أن يحدث، فى أى نص جديد، من أول سطر أو سطرين يقرأهما عليه أى مخرج يمنى نفسه بأن يعمل (س.ج.) معه.

إذا ما رأيته أثناء البروفات فأنتَ ترى لهبا يتحرك، أو حريرا يتموج، أو ماردا إذ يصَّاعد مع دخان القمقم، أو أى شىء يمكن تخيله، فله روح قادرة على أن تُحيى الكلمات الجامدة، والمشاهد المعادة المكرورة، فتراها وكأنها تحدث لأول مرة. وهو لا يجلس أثناء البروفات إلى ترابيزات القراءة كما يفعل زملاؤه. وإنما يأخذ فى التحرك يمنة ويسرة، ويدور ويلف، وقد يجلس القرفصاء، أو يقفز فوق الترابيزة، أو يتعلق بالحبال المدلاة ويتأرجح للحظات،

وأحيانا ما تستغرقه تأملات جد عميقة، فتراه مغمض العينين ساكنا حتى لكأنه واحد من النساك، فإذا خرج من تأملاته فهو شاحب الوجه، غائم البصر، يتحرك كالمنوم، يبدأ بتمتمات خفيفة ثم لا يلبث أن يندمج فى الدور. إذ ذاك ترى الجميع مشدوهين فاغرى الأفواه ولا تسمع صوتا سوى هديره المحسوب أو غمغماته الرائقة، وإذا سكتَ فهذا إذْنٌ منه لطيور الصمت أن تحط للحظات ريثما يستفيق الحضور من ذهولهم. بعدها ترى خبراء الماكياچ وهم يهرولون إليه بمناشفهم وأدواتهم ويأخذون فى تمشيطه وتزجيج حواجبه وتخطيط وجهه بما يحتاج إليه الدور.

وأحيانا ما تستوقفه نقطة فى الحوار أو الجمل الإرشادية فيثير حولها نقاشا، فتعجب كيف اكتشف أن هذه النقطة البسيطة - على تفاهتها - تحتوى كل هذه المضامين الخطيرة. ولأنها مضامين جد خطيرة، فإنها تقوده إلى العديد من القضايا العامة التى يجعلنا الخوض فيها فى موقف لا نحسد عليه، فترانا وقد وضعنا أيادينا على قلوبنا وراحت رؤوسنا تتلفت فى كل اتجاه. وقد يذهب بعضنا إلى الأبواب والنوافذ ليغلقها، فحبنا له يجعلنا أخوف الناس عليه.

وهو رقيق جدا، وشفيف جدا، وبه عفة حالت بينه وبين هواة

القيل والقال. ولطالما حاولوا جعله مادة لحكاياتهم التى يروجونها فى أوساط الفنانين، ويسودون بها صفحات المجلات الفاضحة، لكنهم فشلوا. بحكم صلتى به أشهد بأنى شاهدت عشرات الفاتنات، ممن يتربعن على عروش الفن، وممن يسعين إلى هذه العروش، وهن يرمين بأنفسهن عليه، ولا ينلن منه غير الصد المهذب، فيزددن شغفا به ولا يعادينه.

إذا ما دخلتَ شقته، ونادراً ما يدخل أحدٌ شقته، ظننته فتى مراهقا من كثرة صور الممثلين التى تزحم حوائطها. وهو لا يعلق صورة لممثل لا يحبه أو لا يقدره. ولأنه يقدر نفسه حق قدرها، فإن بعض الزوايا مزينة بصوره أثناء تأديته لأهم أدواره، وبعضها يسجل لحظات خاصة تضمه وزملاءه خلف الكاميرا أو وراء الكواليس. أكثر من هذا، فلن تستطيع التحرك بسهولة دون أن تشفط بطنك أو تمشى بجنبك لتتحاشى إسقاط أى من المانيكانات المتناثرة هنا وهناك، مرتدية ملابس أهم الشخصيات التى أداها فى المسرح والسينما، فتغضبه. وخلاف ذلك الفوضى هى المتحكمة، فالثلاجة والتليفزيون وشاشة العرض الخاصة وأرشيف الأفلام وأرفف الكتب ومائدة الطعام، كلها موجودة بالأنتريه، أما الغرف

الأخرى ففيها أشياء لا أعرفها لأننى لم أدخلها.

وسط هذه الفوضى قد يُدهشك أن ترى (س.ج.) نصف عار، وقد انثنت إحدى ركبتيه فوق رقبته واستراحت سمانة ساقه فوق كتفه فتدلت قدمه على زنده. أو لعلك تفغر فاك مشدوها وأنت ترى بأم عينيك (س.ج.) العظيم نفسه إذ يستقيم مقلوبا بين الصور وزحام الأنتريه، طويلا ، مشدودا ، وممشوقا، مرتكزا على ذقنه - نعم ذقنه - وفاردا ساعديه، قد تندهش أنت ، أما أنا فقد كففت عن الاندهاش، فقد أفهمنى ذات مرة، بعدما نفخ نفسه وأوداجه حتى تحول إلى برميل، ثم عاد واسترق ونحل حتى تساءلت عما إذا كانت له - مثلا - أحشاء، وأكد لى أنها ليست اليوجا التى يمارسها، لكنه التمثيل.

ولأنه يحب أهل الحارة التى نشأ فيها، وكل الناس الذين يشبهون أهل حارته، فقد حشد خيرة فنانى وخبراء صناعة السينما وأنتج فيلما يتغنى بالأحياء الشعبية. ومزج حياته بحياة كل المحيطين به فى الحارة، وفى غرفة العرض الخاصة، كان يفاخر بأنه هو ذلك الصبى المتسخ الذى ينتعل الشبشب مقطوع السير، ويرتدى تلك البيجاما القصيرة. ولأنه أعطى هذا الفيلم خلاصة

فنه، فقد ظل يعرض لثلاث سنوات متصلة فى إحدى عشرة داراً للسينما.

مع ظهور فكرة دخوله المعترك النيابى احتلت المساحات الشاغرة من الجدران صور لقطاعات من الجمهور فى مناسبات معينة ومن زوايامختلفة. كما تكدست على المكتب كتب فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة. وطرأ تغيير على سلوكه داخل الشقة، فهو الذى لم يتعود الوقوف أمام صوره أو صور الممثلين الآخرين، أصبح يقف أوقاتا طويلة يتأمل وجوه وأجساد وأردية الجموع المحتشدة على الحوائط. أكثر من هذا، أصبح يقرأ سيناريوهاته وخطبه ويراجعها على قسمات وملامح هذه الوجوه.

ولما أمر بسحب نسخ فيلمه من السوق لئلا يؤثر على الناخبين، راح مديرو شركات التوزيع يتصلون به وبى، بصفتى مديرا لأعماله، محتجين ومندهشين، وحينما كنت أرد بما سمعته مرارا .. هل للمرشحين المنافسين نفس الفرصة؟ كانوا يسكتون وأنا أعلم أنهم يظلون يتطلعون لبرهة إلى سماعة التليفون التى ينبثق منها هذا الكلام العجيب.

عندما دخلت عليه هذه المرة لم أعرف إن كان يستذكر إحدى

السـيناريوهات أم يتـدرب على إحـدى خطبـه، فـجلستُ أمـام التليفزيون وفتحته لأتلهى بمتابعته بعدما قمت بإخفات الصوت حتى لا أشتت انتباهه، فقد كان يؤدى السيناريو أو الخطبة بطريقة البانتوميم، ويتحرك ببطء بين المانيكانات والصور الحاشدة. تركته يؤدى ما يشاء بالطريقة التى يشاءها وتابعت بطل الفيلم الذى كان يقرأ شيئا ، لفت انتباهى أن (س.ج.) كان منحنيا هو الآخر على الأوراق التى بين يديه. فى لحظة واحدة استـقاما، ابتـسمت فى سـرى ورحتُ أتابع حـركـة البطل داخل غـرفـتـه، إلى أن جـاء (س.ج.) أثناء أدائه، ووقف أمـامـى فى المنطقـة الخـاليـة خلف التليفزيون. قرأت المكتوب على الورقة التى سلطت عليها الكاميرا، وقلتُ له: « هذا الرجل يبدو أنه ثائر سياسى». لكنه لم يرد، فقد كان مشغولا بفتح الثلاجة ثم التقط زجاجة ماء شرب منها. لدهشتى رأيتُ بطل الفـيلم يفـعل نفس الشىء. رفـعت بصـرى إلى وجـه (س.ج.) وهو يهرش أنفه وشعر رأسه. نفس الشىء فعله بطل الفيلم تساءلتُ: « أيهـما يقلد الآخـر؟ ». تحـرك (س.ج.) يمينا ، فـفـعل الممـثل نفس الشىء. يسـارا، تحرك معـه فى نفس الاتجـاه، تحـرك الممثل للأمام، ففعل (س.ج.) نفس الأمـر وأصبح خلفى. تابعته

فرأيته يمسك القلم، استدرتُ إلى التليفزيون فوجدتُ الممثل يفعل نفس الشيء. هممت بلفت نظره إلى ما يحدث، إلا أن الشاشة شدتنى بذلك الشبح الآدمى الذى انبثق فجأة من وراء الستارة وضرب البطل على رأسه ثم فتح الباب وسحبه إلى الخارج.

استدرتُ نحو (س.ج.) بسرعة فلم أجده، اندفعت من الباب المفتوح، لكنى لم أجد أحداً. عدُت إلى الشقة وفتشتُ كل الغرف، دون جدوى، ارتطمتْ عيناى بالورقة التى كان يكتب عليها، فقرأت فيها كلمتين اثنتين .. « جمهورى الحبيب ».

شـــاعر مجنـــون

أتعبنى البحث عن شاطىء للبحر الفيروزى الرائق. تاهت بى العينان الواسعتان، أشعر بنفسى أغوص، أغرق منتشيا شىء ما يجذبنى لقاع مفتقد. تدفعنى حلاوة الروح فانتفض، أمد ذراعىَّ. تصاعد فقاعات الوجد من منافذى إذ أهتف باسمها:

- ليلى ... ليلى ..

أرختْ هدبا أسلمنى زورق الواقع. دثرتنى ببسمة ود سخية،وأشعلتْ بصوتها ضرام الحب فى قلبى:

- المدير الأكرش، أبى يميل إليه.

أُحكم دثارها من حولى.

- وأنت؟

- أنا لكَ.

آه ... فلتذهبى أيتها الوساوس إلى الجحيم .. آن الأوان ياقلبى أن تهدأ. ها هى ذى ليلى تقولها بنفسها. لم يبق سوى أن أستخدم مستلا سيف الشجاعة من غمد الحب. سيعلم أبوها أنه ليس سيفا من خشب.

- لن أسمح لك .. مفهوم؟

مرعوبا تتابع عيناه الحد المرهف. تتوزعان مع مزق الهواء المتناثرة من ضرباته السريعة المتتالية، حاد، قتَّال، بتار. فجأة،

أُثبته بين حاجبيه فتند عنه شهقة:

- انطق.

- بأى شىء؟

- بالموافقة.

- موافق .. موافق ..

أُبعد السيف، فيلتهم الهواء ... مِزقة .. مِزقة ... يكبشها بكفيه ويدفسها فى منخاره.

- بشُراك يا ليلى .. بشراك.

وألقتنا النشوة على الحشيش المندى، فيما دفع النسيم بخصلات شعرها الليلى إلى فمى. ينساب ناعما رقيقا بين شفتى. اقبض على واحدة. زمة بسيطة للشفتين نزعتها من خميلاتها. كم أنت هشة، رقيقة، ناعمة، أضعها فى جيبى بعناية، تميمة لطقس من طقوس الحب الاتصالى يا سير جميس فريزر. لن أتركك ياحبيبتى أبدا، لن أتركك.

- كولا مثلجة. ليمونيتا، انعش نفسك يا عطشان.

- آتيك بواحدة؟

- لا شكرا.

شكرا لك أنت . أنعشتنى، بالرغم من وقدة الوجد، بلا

مرطبات. فمعى جيوبى ضامرة من قلة الزاد النقدى. مساكين أطبائى الاشتراكيون، أعجزهم أن يجدوا لضمور جيوبى علاجا. رجلان وامرأة يُدخلان فتاة عنوة فى سيارة. عملية تأديب عائلية هى أم حادثة اختطاف؟. آه ياليلى ... لا أطيق مجرد تصور فقدانك.

زأر السيف فى وجهه مقررا:

- سنتزوج.

ابتلع ريقه:

- وماذا يمنع؟

- الآن..

- .. الآن.

- كم تريد مهرا لها؟

- المدير كان سيدفع ثلاثة آلاف..

- سأعطيك خمس...

- ... جنيهات ..؟

- .. قصائد.

ثوب زفافها بسيط، كنفسها، يشع بهاء وسناء. أسبح حول الوهج الآسر. الكترون يعشق نواته. فلتسقط حضارة الذَّرَّة إن اعتمدت

على الفصل بين الالكترون العاشق ومعشوقته النواة. طرحتها الوردية الرقيقة تُعشى. آه يا نواتى الحبيبة. ملعون كل من يدعو لشطر الذَرَّة. قلبى المأخوذ أحس به يتواثب داخل صدرى. مسكين أنت يا قلبى. ستظل حبيس حيزك الضيق، لا ترى تماوج الشوارع والطرقات بالراقصين. لكنك تهلل يا قلبى وتشاركنا فرحنا. ليتك ترى النجوم المتلألئة إذ تهبط متناثرة زهورا وياسمينا.

- ماذا جرى للعالم.

- كلهم يا حبيبتى فرحون لفرحنا.

ها هم سكان البنادر والكفور يزحفون، عمال وفلاحون وأفندية. من كل البلاد جاءوا ليرقصوا فى شوارع القاهرة. استمعى إلى دقات الطبول وعزف المزامير وطرقعة الصاجات. ها هى الشماريخ والبيارق ترتفع وتطفو فوق الرؤوس المائجة. أديرى وجهك الريان وانظرى إلى، أو اطرحى بهاءك على كل هذه الجموع ولا تبالى، قرة عينى، بارتداد ملامح تلك القلة من معارف أبيك. لا تشغلى نفسك لحظة بذلك القزم الذى يجأر تحت القبة.

- .. الطوارىء .. لا بد من إعمال قانون الطوارىء لمواجهة كل هذه الحشود ... فقد تستغل العناصر المندسة فوضى الاحتشاد لقلب نظام الحكم.

أنظرى هناك ... ذلك الصبى فى شنغهاى، إنه يوقد شموعه من أجلنا. وهاك المكسيكى. انظرى. ذلك الذى يشعل كل تلك الصواريخ النارية. أرأيته؟ ما أبدعها. يشعلها ابتهاجا بزواجنا ـ كم هى جميلة تلك النجوم: حمراء، خضراء، زرقاء، وذهبية .. تحيط بصورة زفافنا، تزيدها دفئا، ما الذى أوصل صورتنا إليه؟ تسألين؟ وكالات الأنباء بالطبع والأقمار الصناعية، وهذا الروسى ... هذا الذى يقف فى لجنته المركزية. أنظرى، أما تسمعينه؟

- .. وإنى لدهشُ، كيف لم يُضمِّن كل من ماركس وإنجلز بيانهما ما ينبىء عن جدلية هذه العلاقة ومعطياتها.

ما أجمل أن تلمس أناملك البديعة وجهى. ما أدفأها. ناعمة، رقيقة. تُلهب عواطفى. أُحس معها بوجهى يسخن. يشتعل. أما تخشين على كفك الرخصة؟ ماذا هنالك فى الأفق الغربى يستدعى إدارة الرأس إليه؟ ... آه ... واشنطن ... مالنا واجتماع الكونجرس؟ إنه مجرد اجتماع عادى. سترات أنيقة وياقات منشاة. هه !! من يكون هذا السيناتور المتعجرف؟

- .. وكما ترون، فإن هذا الزواج يجب ألا يتم. حقا هناك أكثر من زيجة تمت وتتم بين فقراء وأغنياء، لكن زواجا يتم بين هذا الفقير وهذه الغنية بالذات، وللأسباب التى شرحتها، شىء لا يمكن

السكوت عليه.

هذا الموتور. أية أسباب؟ .. ليلى .. أين أنت؟ .. عدنا للجرى والمطاردة؟ .. أسمع أنفاسك تتردد. ويلك من قبلتى لو أمسكت بك. أريجك العطر ما يزال يملأ الجو. ليلى. شىء ما يقبض قلبى، حاسة قلما تخطىء ... أهتف وجلا:

- ليلى .. أين أنت؟

ما من رد . أصرخ:

- ليلى..ليـ ...

أى أثر هذا؟ ... أى قدم غريبة؟ .. صراخ مكتوم يأتى من بعيد، صراخها .. أنفاسها ما تزال تملأ الجو .. أجمعها.. «أين أنت يا ليلى».. أجدل منها حبلا .. أختبره .. متين .. « لا تخافى يا ليلى» . أدفعه فى القبة السوداء. نعش الدنيا الأسود، أثبته فى مسمار يبرق .أتسلقه.. عمائر القاهرة الضخمة أضحت علب كبريت صغيرة .« سيخرب عالمى من بعدك يا ليلى فأين أنت؟ » .

- ليلى ....

أهز الحبل إلى الخلف .. إلى الأمام .. يزداد تمرجح الحبل قوة .. تهتز علب الكبريب من تحتى.

- ... أنا فى طريقى إليك.

يعود بى الحبل إلى الخلف ... المسافة تصبح أكثر اتساعا ... أضع قدمى على واحدة من قمم الهيمالايا. أتركها مندفعا صوب الغرب ... ينساب العالم من تحتى. ايتونى بدوران .. نيوتن ... ابن يقظان جديد أنا يا ليلى. فليسقط سوبرمانك يانيتشه .. الخضرة والصفرة تكران من تحتى ... بقع زرقاء ومساحات مائية ... دكنة جبلية ... مساحة مائية كبيرة.

- أين أنت يا ليلى؟

نفس الصرخة المكتومة .. ها هى جبال روكى تقترب ... ثمة ضوء ينبعث من إحدى القمم. رأس دبوس مشع .. يتسع ... يصبح مربعا مضيئا .. دهمنى الصراخ ثاقبا مرعوبا .. اضطرب الحبل فى يدى .. هو صوتها ... أعرفه.

- لا تخافى ياليلى ... لا تخافى.

الضوء ينبعث من نافذة قصر منيف ... ثمة أبراج عالية ... أقترب من القصر ... تقترب الأبراج .. خنافس سوداء تتحرك على السطح ... حراس مسلحون يضعون قبعات داكنة ... أثب إلى السطح.

- اثبت.

يصرخ أحدهم فىَّ ... يتأرجح الخوف فى عينيه ... يطلق

مهزوزا ويسقط رعبا ... طعنتنى صرختها الفزعة ... زادتنى الطعنة هياجا .. ربطتُ الحبل بسياج السطح وهرولتُ هابطا الدرج الرخامى .. سقط حارس آخر .. عند الطابق التالى توقف الصراخ .. لا أقدر على النداء باسمها والحيرة تربكنى. « فى أى الحجرات أنت؟ ». دفعتُ بابا فانفتح على صمت تكوم فزعا. « فى أى غرفة للتعذيب؟ فى أى قبو؟ فى أى مخدع؟ ». دوت صرخة مرتعبة. صداها يتلاطم بين الجدران الرخامية تمتزج بدقات جونج مخيفة. لا أقدر على الصبر.

- ليلى .. ليلى ..

اقتحم غرفة تصبغها حمرة الدم ... تسلمنى إلى دهليز مفروش بالبسط .. ما تزال الصرخة تتردد بين أرجاء القصر .. أقتحم صالة فسيحة كثيرة الرياش، دهليزا آخر، حجرة كثيرة المرايا، ممرا ضيقا ... أهبط درجا .. صراخها ما يزال يملأ على نفسى ... حارس يريح على زنده مدفعا رشاشا ... أقبض على رقبته ..

- أين؟

لافظا أنفاسه:

- هناك ..

أقتحم باب القبو الذى أشار إليه فتصطدم عيناى بظهره

العريض ... طيات قفاه مرخية على ياقة سترته. التفت إلى ، إنه هو ... المدير منتفخ الكرش ... أعرفه ... يحجبها بجسمه ... في عينيه نهم شديد. استللتُ سيف الشجاعة من غمد الحب وتقدمتُ إليه مدفوعا بحنق العالم كله. فجأة وثب أحدهم على من وراء الباب. التفاته سريعة ولكمة أسرع. نظرتُ للوجه المصروع، فوجئتُ به عضو الكونجرس. استدرت على خوار يبتعد.. إنه المدير .. حملها ليهرب بها. وثبتُ إلى الباب.. لاحظتُ ثوبها الممزق وآثار المقاومة على وجهها.

- يا نذل.

هجمت عليه فألقى بها لأتلقفها. « المسكينة غائبة عن الوعْيْ ». أخرجَ آلة رهيبة .. شيء معدني له ست فوهات وزناد. أرقدتها خلفي. عندما هم بالضغط على الزناد رواغته وغيبتُ السيف في بطنه الرخو لتسقط آلته الجهنمية ويسقط فوقها.

حينما نزعت سيفي خرجتْ ذؤابته وقد التصقت بها ورقة مالية ذات قيمة كبيرة. لما أفاقت ليلى كانت بالغرفة زوبعة أوراق مالية.. خرجنا إلى السطح وأمسكنا بالحبل والأوراق تطاردنا. ها هو ذا القمر قد بزغ من الأفق الشرقي ليهدينا.

- أحبكَ..

ـ أحبك
واندفعنا فى الهواء.

فوق سطح المحيط سألتها:
ـ ما العمل؟ ... القاهرة اقتربت ولن نستطيع الهبوط إليها قفزا... قد تصدمنا الجاذبية بالعمائر...
انتزعتْ شعرة سوداء طويلة.
ـ لا تخش شيئا يا حبيبى... ندع الحبل ونركب هذه الشعرة.
هنأتها لما هبطتْ بنا الشعرة حيث كنا بالتمام.
ـ قائد الشعرة السوداء الناعمة يهنىء راكبته العزيزة بسلامة الوصول.
ـ ... قبلة .. استلقاء على العشب.

ـ هيه ... كانت مغامرة ياليلى... لماذا لا تجيبين؟
تابعتُ سبابتها المصوبة ناحية باب الحديقة.
ـ أبى ... أبى قادم.
ـ آه... لا تخافى ... احتمى بى.
صوب إلينا عينين قاسيتين، ثم مد يده آمراً:
ـ تعالى يا بنت.

هَمَّتْ بالاستجابة فدفعتها وراء ظهرى ويدى تتحسس نطاقى باحثة عن مقبض السيف:

- انتظرِ ...

ونفختُ صدرى..

- أنا أطلب يدها منك.

لطمنى بنظرة استهانة:

- المدير أفضل عندى ألف مرة من شاعر فقير ومجنون... مثلك.. ثم انقض على معصمها.

فوجئتُ بالسيف مكسوراً، فغامت الأشياء وأحسستُ بأنى فقدت ليلى إلى الأبد، وأنه من الأفضل أن أصبح شاعرا مجنونا.

حكاية رجل عصبى

أنا رجل عصبي جدا، ومتوتر جدا. يقينا هناك شيء يشتعل بداخلي. كلما انفردتُ بنفسي تشممت رائحة الشواء. وإذا تمددتُ أو رقدتُ على أريكة أو سرير أو رمل، لا أقدر على مقاومة رغبتي في التقلب. وإذا ما غسلتُ وجهي، أو ألقيتُ جسمي بالماء، طش وتحول إلى بلورات تنثرها السخونة من حولي مغيمة بالأبخرة قلتُ: إن كتمان الأمر سيقتلني. فاتحتُ أحد المعارف فضحك وقال:
- عال... نأتيك بسفود.

يشهد مخدومي بأني أجيد أشياء كثيرة: الصيد والزراعة والصناعات اليدوية البسيطة، القراءة والكتابة والرقص والنقر على الآلة، الطهي والغسل والكنس والمسح وإعداد المائدة، رعاية الحديقة وتصريف المجاري واصلاح التوصيلات الكهربائية، لعب الدومينو والطاولة والسيجة والضامة والشطرنج، فضلا عن مهارتي التي لا تجارى في تفنيط أوراق الجوكر والبوكر والكومي والأليت والكونكان، فوق هذا وذاك، أعرف كيف أسعد مخدومي بتقديم المكيفات والكحوليات وبنات الهوى.
- كل شيء ... أنت تعرف كل شيء.
دائما ما يردد مخدومي هذه الحقيقة في عبارات مهما قصرت أو

طالت، فإنها لا تطفيء الأوار المشتعل فى داخلى، ذلك الأوار الذى يأكلنى أكلا، ويدفعنى لأن أصيح، أصرخ، أجار، أبكى إذ أعترف بالشيء الوحيد الذى اكتشفت أنى أجهله، « السياسة ».

- يا عالم ... يا خلق ... ياهوه ... السياسة ... السياسة..

وأقعيتُ تحت قدمى شخص قالوا إنه ضليع فى أمورها، فربتَ على ظهرى :.

- بسيطة ... توسط الميدان واهتف « تسقط ... تسقط ... على الفور سيأخذونك إلى حيث تتعلم السياسة...

وأعقب:

- ... مجانا.

فعلتُ.

وأخذونى إلى ذلك المكان المزدحم بالدهاليز والغرف، فى كل غرفة بُرش وبطانية وجردلان، واحد للماء وآخر للبول، لا يمكن تمييزهما بشيء سوى الرائحة والتكلسات، تكلسات جردل البول أزيد قليلا. كذلك رائحة النوشادر.

عندما أغلقوا علىّ الباب هنأت نفسى. هنأتها ورحتُ أرقب ترجرج صورتى فى جردل الماء، « أخيرا سأنجح فى اطفاء نيرانى

الداخلية وأتمكن من النوم ويتمكن منى ».

صاح حارس فى الخارج وغرد طائر فتبينتُ بالغرفة نافذة وقضبان، قلتُ :

ـ من لا يأخذ نفسه بالشدة لا يتعلم شيئا.

وعندما أطفأوا النور ولم يبق سواى والجردلين والبرش، قلتُ:

ـ فلأفرغ مثانتى استعداد لتقلبات الليل، إلا أننى أخطأتُ الجردل فالتهب وجهى.

عند الفجر، الوقت الذى تصل فيه مقاومتى لمنتهاها ، وأبحث فيه عن شيء يزيد منها ويدعمها، شعرتُ باحتياجى لدلق ماء العالم كله فى جوفى، إلا أن الماء الموجود قليل وملوث.

صحتُ :

ـ أيها الحارس ... أيها الحارس ..

ولما لم يجاوبنى أحد، تعلمت أول درس فى السياسة، وشربت الماء الملوث بالبول.

جلستُ على منديل الضوء الملقى من النافذة أتقمل واستدفىء، فجأة، دُفع الباب بعنف ودخل الحارس. أُخذتُ، فهذا ليس أوان التفتيش، ولم تدهمنى الجلبة أو الضوضاء التى اعتدتها عند كل

كبسة. تخلصتُ من حيرتى وهممتُ بالوقوف بالطريقة التى تعلمتها طوال حياتى أمام ممثلى الحكومة، إلا أن ذراعيه امتدتا للخارج، وبعد حركتين اثنتين رأيت ثلاثة رجال يندفعون إلى الداخل حتى كادوا يرتطمون بالحائط. قلتُ فى نفسى هذا الحارس هرقلى، لابد أنه قوى جدا، وشجاع جدا، حتى يفعل هذا مع ثلاثة رجال أكبر منه حجما، وأكثر منه شبابا. غير أن زرا التمع بفعل الضوء فانجذب بصرى إلى حزامه الجلدى والصقر الذى يتصدر غطاء رأسه واخرس تفكيرى، قال فى اتجاهى:

- ضيوف.

وتذكرتُ أننى لم أقف بعد، فوثبتُ واقفا بالاحترام الواجب، إلا أنه تجاهلنى تماما واكتفى بأن حدجهم كلهم بنظرة واحدة تعلن أنه السيد بلا منازع، بعدها بصق فى اتجاه الباب.

- فى الصباح تتسلمون الأبراش والبطاطين، ثم خرج وصرَّت المزاليج والأقفال.

قلتُ بعدما وجدتها تبرق فى ذهنى وتتلاعب على لسانى:

- يستمد قوته من السلطة.

بدوا ضعافا منهوكين، شفاههم مشققة وملتصقة وتثير الشك فى مقدرتهم على الكلام أو حتى مجرد تحريكها. تصعبتُ وواسيتُ

نفسى ولكتها: « ها أنت ذا ستعايش ثلاثة مساكين» . ثم ارتميت على منديل الضوء وعاودتُ الاستدفاء والتقمل، إلا أن أحدهم استند إلى الحائط وقال:

ـ الخوف ... من الخوف...

هه؟.. قلت: هه؟... قال:

ـ الخوف ... يستمد قوته من الخوف.

وجلس بين زميليه بينما أحسستُ بأشياء كثيرة تتفتح فى داخلى، قفزتُ نحوه واحتضنته ... إزاء نظرة الاستفهام التى غزنى بها هتفتُ:

ـ أنا فرح بك ... فرح بكم ... بدأت أتعلم ... بدأت.

وجمعتنا بطانيتى الوحيدة.

لا أنكر أن السعير المتقد بداخلى قد خَفَّتْ حدته، إلا أنه ـ ولأمور ما لا أدريها ـ يتيقظ فجأة فيحيل رقادى جحيما. وكنت أتحرج من التوجع أمامهم، وما أكثر ما تمنيتُ فى مثل هذه الليالى أن تقطع الإدارة النور مبكرا عن موعده المعتاد. وكنتُ أعطيهم ظهرى وأعض على أسنانى وأقضم البطانية والبرش ولا أصرخ. وأحيانا، أتسحب فيما يشبه الزحف إلى جردل الماء لأعب منه، وإذا ما

انطفأ النور، كنتُ اسمح لملامحى بالتبدل ولجسمى بالتقلب الحذر، وإذا دخل الليل أُخـرج من بين أضـراسى بعض التـأوهات، ولربما بكيتُ.

هذه المرة، أرعدتنى السخونة عند الفجر، وكنتُ قد نمت وأنا أفكر فيما حصلّته وما لم أحصله، وكعادتى فكرتُ بالماء عندما نضـوت عنى البطانية . هممتُ بالزحف إليه، إلا أننى رأيتـهم متيقظين. رؤوسهم متلاصقة، وأحدهم يمسك بورقة مبرومة اشتعل طرفها، وإلى مقربة ارتمتْ علبة كبريت. كيف تسرب الكبريت إليهم؟ ... كنتُ أتلوى، لكن ذهنى ظل قادرا على التمييز، نظروا تجاهى كما لو كنت قد باغتهم. مد أحدهم يده، وأطفأ الورقة .. آه ... وانحرفتُ إليهم:

- ماذا تفعلون؟... انطقوا... ماذا تفعلون؟

انقضضتُ على علبة الكبريت وانطلق ذهنى:

أنتم تتآمرون ... تسرقون ... تريدون سرقتى...

وأشعلتُ عودا فظهرت لى ورقة ممزقة الأطراف وقلم فى حجم عقب السيجارة..

- ما هذا؟ ... ممنوعات؟ ... قلم؟ ...

- هششش.

وأسقطونى بينهم .. كل ذرة فى جسمى راحت تنتفض، فيما ظل لهب العود يتماوج على وجوههم الأسطورية. وظلت رأسى تقاوم أكفهم التى تجاهد لقفل فمى. وضح لى أنهم لا يعرفون كيف يتصرفون معى فتماديتُ، وعندما انسحبت النار إلى اصبعى عويتُ ... لكنى كنت قد أمسكت بالورقة. اختطفوها فتمزقتْ ... أشعلتُ عودا آخر وقرأتُ المِزقة التى فى يدى .. لم أفهم شيئا.

- ماذا تكتبون؟

- هششش.

همس أحدهم:

- لا تصرخ.

وهمس الثانى:

- بصراحة، نحن لا نثق فيك يازميل.

- لا تثقون؟

رد الثالث:

- قد تكون دسيسة.

- دسيسة؟

فهمتها فصرخت:

- أنا؟!... أنا دسيسة؟!

انسحبت نيران العود إلى إصبعي فعويتُ:

- أنا أتعلم.

وتوقف كل شيء.

تبادلوا النظر ثم سحبوني إلى الحائط وأجلسوني وأفهموني أنهم يرون في ملامحي الآن شيئا قد يوحي إليهم بالثقة. كنت أرتعد، وكان البخر يتصاعد من جوفي ويخرج من نوافذ رأسي، قالوا:

- أنت محموم ... أنت مريض ..

فتملصتُ منهم ولوحتُ بالورقة:

- ماذا تكتبون؟

تبادلوا ذات النظرات الخرساء ثم تطوع أحدهم:

- هل نعتمد على مروءتك؟

هززتُ رأسي أن نعم، فنظر باتجاه الباب ثم همس:

- بيان ...

- هه..؟

- ... ننوى تهريبه إلى الخارج ... فهمتَ؟

بقبقتْ أحشائي فزحفتُ إلى جردل الماء ثم عدتُ إليهم وفي رأسي تطن كلمة لا نثق ... لا نثق ... لا نثق ... قلت:

- هو الحذر إذن

هزوا رؤوسهم بالايجاب فملتُ بجدعى إلى الحائط، ومن النافذة وعبر القضبان رأيتُ السماء ملاءة بنفسجية كثيرة الثقوب فأحسستُ بقدر كبير من الراحة.

قالوا إنهم لن يخسروا شيئا، وقالوا الجماهير الشعبية، وقالوا الملاك، وقالوا إن العمال هم مسامير النعش. وقلتُ هذا كلام جديد عليّ، وقلتُ إن مخدومى يستغلنى إذن، وقلتُ أزيدونى، وقلتُ إننى كنتُ ميتا وحييتُ، وأخذتُ أحدق فى قضبان النافذة بينما أخذ صدرى يعلو ويهبط.

أطلَّ الحارس برأسه وقال:

- طابور الشمس.

نظرتُ إلى زملائى مستطلعا فضحكوا، ضحكوا ضحكا حقيقيا، ضحكوا ضحكا كهذا الذى كنت أقدر عليه وقت أن كنت طفلا هتفتُ:

- أنتم تضحكون ضحكا حقيقيا.

عندما هم أحدهم بالإجابة، دخل الحارس وصرخ:

- طابور الشمس يا سفلة.

فنهضنا وتبعناه، وبالرغم من تيقنى من أنهم يعرفون معنى التسمية، وأن جهلى بها هو الذى أضحكهم، إلا أن عقلى المصدوم أخذ يطحنها، عله يصل إلى سرها، عندما قربت درجات السلم الحديدى على الانتهاء، ولاح باب العنبر المفضى إلى الفناء، تقهقر ذلك الذى كان أول من كلمنى حتى قاربنى وهمس:

ـ أنت الأقدم ... ألم تنزل لطابور الشمس؟

همستُ بدورى:

ـ إنها المرة الأولى ...

عندئذ صر باب العنبر، وانسكب علينا لألاء شديد، لألاء شديد وساخن. انطبقتْ جفونى فرفعتُ إليها كفى، وعندما دفعنى حارسنا وحارس الباب إلى الخارج، كانت عيناى قد تعودتا هذا اللألاء الغريب الذى اكتشفت أنه يغمر كل شىء.

هتفتُ:

ـ يا ألله..

فالفناء يغتسل فى الضوء، والمساجين يتحركون فى كل اتجاه، وهناك السور العالى والأسلاك الشائكة ومدخنة المطبخ، وهناك شجرة ، وبين الشجرة والأسلاك يمرح سرب من العصافير.

فتحتُ صدرى للهواء الدافىء، فتحته وعببتُ منه حتى حلتنى

قد انقلبتُ صرة مملوءة بدفء لذيذ.

هتف حارسنا:

- شهلوا.

ثم اجتاز بنا زحام الجنائيين، وأدخلنا مربعا سوروه بالدوبار وأشرطة الشاش.

- نصف ساعة وتعودون للزنزانة. نظرتُ للسماء. زرقاء، والعصافير تحط لتوها فوق الاسلاك، والنسيم يهز أوراق الشجر، بينما تجمهر المساجين من حولنا، واكتفوا بالتحديق فينا وفى الهراوات التى يمرجحها الحراس فى أيديهم، فعرفتُ لحظتها أوجه الشبه بين العسكر وفزاعات الطيور.

جاءوا فى ذلك الصباح وأخذوهم.. كنا قد تسلمنا طعامنا للتو، قلت لهم إننى سأجهزه لهم ريثما يرجعون، وبالرغم من شح الماء فقد قمت بغسل الفول والجبن وأضفت إلى الفول قدرا من الماء والفلفل الذى هربه إلينا الجنائيون ثم وضعتُ القروانة على التَوْتَوْ الذى أشعلته بعدما تأكدت من أن السولار الموجود به يكفى لعملية إعادة الطهو، وتحولت إلى الجبن وأخذت فى دعكه بقليل من الماء وأضفتُ إليه نقطا من الزيت الذى كنا قد قشطناه من فوق العدس.

وبعد ان انتهيتُ غطيت قروانة الفول وقروانة الجبن برغيفين وأخذتُ أتأمل الأشياء التى تحيط بى. وبالرغم من أنها جميعا من الممنوعات، فقد شعرت بالامتنان لهم والإعجاب بقدراتهم على التعامل مع الجنائيين ومخالفة الممنوع والإتيان بأشياء مبهرة واخفائها بطرق أكثر إبهارا. غير أنهم لم يرجعوا، وجاء ميعاد التمام ولم يرجعوا. قلت للحارس وهو يقوم بعملية التمام:

- لم يرجعوا.

فزفر:

- أعرف.

ثم أوصد الباب، بعدها وجدتنى أصهل وأجرى بين الجدران وأركل الأبراش والبطاطين والجردلين وأنطح الباب وأتقافز إلى النافذة، ثم هدأتُ وتعلقت بالقضبان ورحت أحدق فى فراغ الفناء والشجرة والمدخنة وأسلاك السور والكشافات التى تقطع الظلمة.

صرَّ المزلاج، وفُتح الباب ودخلوا بأحزمتهم وأزرارهم النحاسية. قلتُ: اليمك فسد ولم يأتوا بعد، قال أحدهم: لا تشغل بالك وتعال معنا. فانحنيتُ على أشيائى ألملمها، بادرنى نفس الشخص: اترك كل شيء على ما هو عليه. فتركتُ المسموح والممنوع وخرجت

معهم. هبطنا السلم، واجتزنا العنبر والفناء وباب الوسط، ووجدت نفسى بين المكاتب.

أوقفونى أمام أحد الأبواب ودخلوا إلا من واحد وقف يحرسنى. بدا لى أنه متوتر مثلى. قال: سيجارة ... قلتُ: عطشان .. فنادى على أحد السجناء وطلب كوب ماء ... وفيما انتظره، وأتطلع إلى الباب المغلق، وأحدق فى طلائه المتسخ كثير القشور، إذا بالباب يفتح لأجد نفسى فى مواجهة اثنين جذبانى بعنف والقيا بى وسط غرفة خالية إلا من مكتب ومقعدين يجلس عليهما رجلان مهيبان أما الآخرون فكانوا يتحلقوننى واقفين.

سألونى عنهم وعن التنظيم وعن مخدومى، وعن ذلك الذى كنت أهتف بسقوطه، وأمرونى بخلع الحذاء والسترة، ونزعوا عنى سروالى، وقالوا إنهم سيجعلون عينى مطفأتى سجائر، وأظهروا خرطوما وقالوا: ستُنفخ، وجاءوا بكماشة وضغطوا على عضوى، وإلى حلقتين بالحائط ربطونى وساطونى، ثم فكونى وأمرونى بالجرى بين قبضاتهم، ثم أوقفونى فوق علبة صغيرة من الصفيح وأمرونى بعدم الاهتزاز، وبنفس الكماشة قالوا سنخلع أسنانك.

أفقتُ على صوت الماء يطش فوق جسمى ويتحول بخرا وغماما يلف الأشياء فتتراقص أشباحهم أسفل منى. أحدهم يمسك بكوز

يرش منه عليّ، فأخرجتُ لسانى ورحتُ ألعق شفتى، وتمنيتُ لو أنهم دلقوا كل ما لديهم من ماء فى جوفى، لكنهم لم يفعلوا ، وتركونى معلقا من قدمى، وانصرفوا.

ساقونى إلى الحلبة المسورة بالدوبار وأربطة الشاش وتركونى تحت الشمس وحيدا إلا من حارس مسن وقف خارج السور معطيا ظهرلى، ورأيتُ الريح تهب وتأخذ السواد المتصاعد من مدخنة المطبخ وتنثره باتجاه الشجرة التى تدلى من أحد أغصانها خفاش نائم. قلت للحارس: إنهم يضربون بعنف. وقلت: التعلم ليس بالأمر اليسير، وحاولت الابتسام إلا أن شفتى المتورمة آلمتنى، قلت: لماذا لا يخلصون إلا فى الإيذاء فقط؟. وقلتُ: إن النيران التى فى داخلى بدأتْ تخف وها أنذا لم أعد أشرب ماء كثير. غير أنه ظل صامتا ولا يرد.

ورأيتُ الريح تشد نثار السواد وترفعه لأعلى ثم تهوى به إلى الفناء فسعلنا أنا والحارس والجنائيون. وفيما أنثنى لأخرج سعلة تحوصلت فى حلقى تخطى الحارس سياج الشاش وأنهضنى ثم ضرب على ظهرى فسعلتُ، بعدها خلع بيريهه وهرش صلعته وسأل: سليمة؟ نظرت إليه فهالنى ذلك القدر الهائل من الحزن

الذى يفيض من نظرات عينيه، فيما ظل الهباب يتساقط علينا كالمطر ونحن نسعل، هتفت:

- أنت حزين.

فأدار وجهه ... واجهته، فإذا بالدموع تسيل على خديه.

- أنت تبكى.

قال:

- ابنى قال مثلك كلاما غير مفهوم فأخذوه.

ربتُ على ظهره مواسيا فانفجر فى البكاء، صاح الصول من أقصى الفناء:

- انتهى طابور الشمس.

فتأبطتُ حارسى وتخطيت به سباج الشاش والجزء المتبقى من الفناء، وفيما نهم باجتياز باب العنبر تمخط أحد الجنائيين طاردا عن أنفه ما علق به من هباب ثم مال إلينا:

- كلنا فى الهوا سوا.

وانضم إلينا ودخل العنبر.

سمعت اسمى يتردد فى العنبر، وجاءنى مسجون وهتف فى وجهى « زيارة ... زيارة ». عجبت، فمن عساه يجرؤ على

زيارتى؟ جرنى الحارس وسط ع يون كثيرة وعبر بى باب الوسط وباب الزيارة، وأدخلنى تلك الغرفة، وأوقفنى أمام تلك القضبان المحصورة بين ثلاث طبقات من الأسلاك المتشابكة. مرتْ لحظة وفُتح فى الجانب المقابل باب دخل منه شخص عرفته من فورى، مخدومى...

قال:

- أبشر ... ستخرج.

هتفت :

- هه؟

لعل عينى كانتا تنزان بلاهة. هذا ما أوضحته لى ملامحه..

قال:

- أنت لا تضحك...

وسكت.

- عذبوك؟

وابتسم.

- ... أوكلتُ عنك محاميا.

ومال إلى السلك.

- ... أوحشتنى خدماتك.

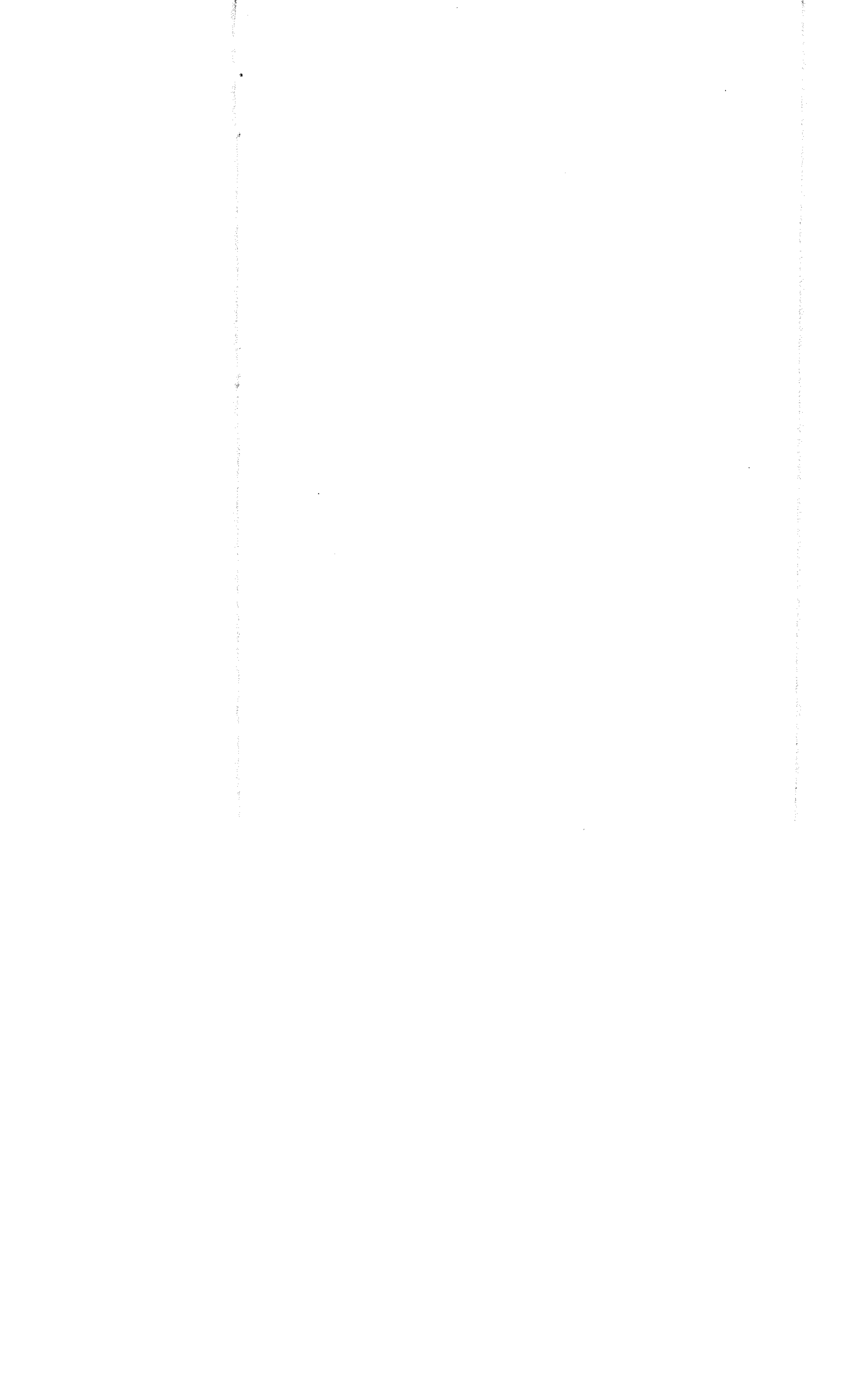
ومال أكثر:

- ... بدونك لا أعرف كيف أمضى الليل.

ثم أردف:

- المحامى يقول إنك ستخرج فى أول جلسة ..

ولشىء ما تركتُ السلك، واجتزت باب غرفة الزيارة ، وباب الوسط، والفناء، وباب العنبر، وبطيئا رحتُ أصعد إلى زنزانتى منفردا.



رفـــض



ضوء النهار وعتمة الليل امتزجا فى رمادية قاتمة، لا أرض ، لا سماء ، لا أفق، ساعة ضخمة معلقة فى الفضاء الرمادى القاتم. التقت أعيننا على نظرة رفض . لا ندرى لتلك النظرة تاريخا، يهتز البندول يمينا فتتجمع نظراتنا على الجد، يهتز يسارا ، على البندول؛ يمينا ،على الجد. تطلع الجد إلى حصار الجثث والهياكل المضروب حولنا، بعضها لا يزال طازجا، بعضها تعفن، وبعضها تحول إلى غبار تستنشقه أنوفنا. نظرات الجد ونظراتنا معلقة بالبندول، يمين ، يسار ، يمين . بالعقارب، جدى ينتظر التقاءها، المذلة تطل من عينيه. كادت العقارب تلتقى . تضاءل . تكور. عيناه تتابعان العقرب الثالث. شفتاه تتحركان. لا صوت . احتضن العقرب الثالث زميليه، دقة مرعبة، تمتم بصوت متحشرج:
- انتهى الأمر.

ازدادت الجثث جثة. نظر أبى إلى أبيه. الحصار يزداد إحكاما، نظر إلى، فنظرتُ لولدى. ولدى مشغول بمتابعة البندول. البندول يتابع رحلته الأزلية. يمين ، يسار ، يمين، عينا أبى غائمتان، تفحصان الجثث المحاصِرة. تنظران إلى الساعة. العقارب تواصل سيرها. جسده يرتعد. الذعر يطل من عينيه، نفس الذعر الرافض.

البندول يتجه إلى اليمين، يغمض عينيه، يتحسس جبهته. يفتح عينيه منتفضا. العقربان اتحدا. صدره يعلو ويهبط. يتلفت حوله. فرقعة جثة تتحلل. ترتعش شفتاه. عيناه على العقارب. العقربان اتحدا.

- لا

خرجت مرتاعة، يضع رأسه بين راحتيه، يضغط، يعصر. العقرب الثالث يقترب. جسمه ينتفض. يسقط كفيه. يشد قوامه، ينفخ صدره، يلقى برأسه إلى الخلف، يصرخ بوحشية، يهجم على الساعة. يضرب الزجاج. اتحدت العقارب. دقة مخيفة. يسقط متهاويا.

هيكل جدى لا يميز عن هياكل الآخرين، نتف من اللحم المتعفن متعلقة بعظام الحوض، قبضتا دود تملآن محجرى جمجمته، جسد أبى يتهرأ. ولدى ينظر للساعة. قلبى بندول يتأرجح ويؤرجح جسمى معه. يمين، يسار، ذهاب، إياب. دخان جثة تتحلل. أنظر لوالدى. ولدى ينظر إلى. عينا ولدى مسنونتان. أُحس بعينى تقفزان من محجريهما. العقربان يقتربان. صدرى يعلو. يهبط. الفك السفلى يسقط من هيكل جدى. صوت سقوطه

يفزعنى.

- ساعة ملعونة.

سمعتها من جدى قبل أن يضيع.

- ... أضاعت كل هؤلاء..

قطعان الدود ترعى جسد أبى.

- ... هؤلاء أجدادى وأجدادك.

العقربان يقتربان... اتحرك كثيرا... ولدى ينظر إلى... أنظر إليه... فى عينيه انعكست صورة رجل مذعور ... البندول لا يزال يتأرجح... يكاد العقربان يلتقيان. أضع رأسى بين راحتى، أضغط، أعصر، أُسقطها، أنظر لهفا للساعة، العقربان اتحدا، أنتفض، العقرب الثالث يزحف، أستجمع قواى، كل قواى، أنفخ صدرى، أصرخ، أهجم، أضرب الزجاج، يتهشم، يتناثر، يتلاشى، يذوب، أتعلق بالبندول. « لو يسكن، فقط يسكن ». يتأرجح بى، يمين ، يسار، يمين، أنظر لولدى، ولدى يضغط على نواجذه ويتحرك كثيرا أكثر من حركات البندول. « هذا البندول المعاند ». أتسلقه. أضرب زجاج الساعة بيد فيتهشم، يتناثر، يتلاشى، يذوب، أتعلق بالعقرب الثالث، العقرب قوى، أستميت، يصعد بى، أضربه لأسفل، يأبى الانصياع، لن أستسلم. الدود يغطى عظام أبى

الجرداء. ولدى يدور حول الساعة قلقا. العقرب يشدنى، أستميت، يصعد بى. ارتجافة أصابعى تمس العقربين. أتطلع لولدى، ولدى يكور قبضتيه ... بكل ثقلى أجذب العقرب لأسفل، العقرب يجذبنى .. اقترب من الآخرين:

- ولدى ... لا ... لا ... ولدى.

بجنون أصرخ .. ولدى يتطلع إلى .. العينان فعلا مسنونتان .. تلاقت العقارب جميعها .. أصابعى اعتصرت .. دقة مخيفة ... انتهى الأمر ... أسقط متهاويا ... ألمح فى عينيه نظرة رفض.

فى مدينة الظلمة المميتة

وألقيتُ نفسي إلى المدينة مسلوب القدرة على الالتفات إلى الوراء. صوتُ تهشم الحصى بالمشارف يدل على أنها ما تزال خلفي تطاردني، لولا الهلال الكابي لتخبطتُ في جدران الدور القائمة، أغيبُ في أول منحنى. لا أعرف ما أبتغيه من هذه المدينة تماما. وقع خطواتي على الأسفلت يرعبني. أنفاسي المكروشة تزيد الايقاع اللاهث رعبا. إلى وسط المدينة تقودني الطرق المعوجة. الأسفلت يئز من خلفي تحت وطأة العجلات العملاقة. يستطيل الظل أمامي.. من عجيب ألا أرى أحدا بالمدينة. أعمدة النور تبصق ظلاما لزجا وتئز الأرصفة رعبا أسود. ثمة ظل يكاد يقارب ظلي طولا. لا أعرف كيف واتتني القدرة على الالتفات للخلف. إنها هي. أنظر للهلال الشاحب ممتنا، وأسلم ساقيّ للريح.

أرعبتني الأبواب المغلقة، انظر خلفي مذعورا. تخطو نحوي ببطء الواثق، أكاد أجن، أطرق بابا، أصم.

- يا صاحب هذا الحانوت ...

أرتمي على باب .. صلد:

- يا صاحب هذا الحانوت ..

أتخبط بين الأبواب المغلقة:

- يا صاحب هذا الحانوت ... يا صاحب هذا الحانوت ...

يا صاحب هذا الـ ...

تطالعنى بقامتها المديدة المشرئبة من فوق العمائر. أعدو فى الحارات، تبتسم، تقهقه، يفضى بى زقاق إلى السوق. آه ... نفس الأبواب المغلقة؟.. ما من أحد فى هذه المدينة؟... ما من أحد؟..

أتوسط الميدان الساكن:

ـ يا تجار هذه المدينة.

أعتلى نصب الموت المجهول مقاوما رعب الضحكة المصلصلة:

ـ من يبيعنى الحياة؟... من يبيعنى الحياة؟

أحس بلهب النظرة الغضبى يذيب درعى المقاوم. أتقوقع خلف النصب.. من بين فرج الأصابع المرتعشة أرى قامتها تستطيل. تغيب قمتها فى شحوب القبة المصمتة... أرقب لاهثا ارتفاع النصل اللامع... يكتم القلب الواجف سؤالا مرتعبا: إلى أين؟... آه، أيها الهلال المسكين، أيها الهلال المسكين.

يتوهج جسده المنبوذ من سماء العتمة ببريق الشهقة الأخيرة. يسقط متيبسا تحت عجلات الاستوحاش، مضرجا فى دمه الفضى، المنثال من الأسطح والأفاريز، ليتجعد لزجا فى الطرقات الاسفلتية، لو تعوق لزوجته أنهار الضوء مسيرة العجلات الشبقة ... لو ..

تخذلنى أنهار الضوء.. تحمر .تسود. تتيبس . تشق العجلات

فيها طرقاً محروثة إليّ. يُظلم العالم تماماً إلا من وهج النصل المتقدم . يشدني الخوف الأعمى من عنقي. يخوض بي هشيم الضوء . يصدمني بالجدر الصماء. يرطم أنفي بعامود نور أسود.

- يا تجار هذه المدينة ... يا تجار هذه المدينة...

من ارتطامي بجدارين متقابلين أيقنتُ أني في زقاق، كركر النصل من فوق أسطح العمائر. أُزيد من عدوي. شيء ما في نهاية الزقاق يخترق جدار الظلمة، دقيق كثقب إبرة..

ضوء..ضوء؟!

أُلهب كفل الريح. أحس بلهاث النصل الحانق. اتساع ثقب الضوء يثيرني... يضحى رأس دبوس... يتسع... يتربع..يستطيل.. باب.. باب حانوت... حانوت أخيراً.. أخيراً حانوت مفتوح على مصراعيه...أخيراً.

- يا صاحب هذا الحانوت...بعني الحياة...هات البقاء...خذ الثمن..

أتلقف ما قدمه...بلهفة العينين الفزعتين أفحصه:

– ماذا؟!...تعطيني كفن؟!

اخترقتْ صلصلة الضحكة النهمة مسام الجلد المرتعد. نظرتُ للبائع أستجديه، أرعشتني نظرته الباردة، دققت، جمدتني برودة

العينين الزجاجيتين، لم تمهلنى الضحكة النهمة . أدارتنى ارتجافة جدران العتمة. أسنان النصل المنشارية تريد بشبق . ثمة صوت أجوف يفرقع خلفى. استدرتُ محنقاً. هالنى أن أجد البائع أشلاء معدنية مبعثرة على بلاط الحانوت . إذن...إذن...

شىء ما بداخلى يتحرك. أحس بزوايتى فمى تربدان، بشفتى تهتزان، تبتسمان. أمر غريب. تضحكان، تقهقهان، يحتوينى هدوء مفاجىء، يقودنى الخطو إليها ، عيناى عالقتان بالبريق الذى بدا وديعاً، تفور فىّ الأعماق ضحكة فاجرة، داعرة، أنضو ثيابى، أبعثرها، تذوب فى الظلمة، أعدو إليها باسطاً كف الرغبة، تنفجر فى عروقى مرارات الحياة.

ـ ما البقاء و ما الكفن؟.. وما البقاء وما الكفن؟ينعشنى اقترابى منها، يهزنى، فلتذهبى أيتها الحياة إلىّ الجحيم، دعينى أعاهر المقصلة.

زعقة فى زكيبة



أنا ذاهب في سفر، ذاهب لألتقى بصديقى الذى يسكن واحدة من ضواحى تلك المدينة الريفية، قرية ألحقتها فوضى العمران بالمدينة.«شبق هذه المدينة شد قريتنا من قفاهاواستولدها هذه البيوت الشوهاء». ابتسمتُ. فما قريتنا بأفضل حالاً من قريته، واستحضرت ملامحه، هذا الولد العربيد. سيفرح إذ يرانى، و أنا بدورى سأفرح. تذكرتُ أننى لم أخبره بقدومى فتوجستُ « قد لا أجده في بيته ، فكيف يكون التصرف ؟ » هجستُ، أنا لا أعرف له فى هذه المدينة وضواحيها مكانا سوى بيته ، و ابتسمت لنفسى « بسيطة » نقدتُ السائق أجره وخضتُ فى طين الطريق المزدحم بقطعان الخراف والماعز « أترك له ورقة فيها عبارة وحيدة،حضرتُ ولم أجدك. وأكتب إسمى والتاريخ و... آه!! ». توقفتُ، « التاريخ؟ » . وهرشتُ رأسى « فى أى يوم نحن؟ ».

واجهتنى عنزة بفكين يطحنان الهواء، تجتر أم تأكل نفسها؟. منعتُ نفسى من الاهتمام بها وطفتُ بغرف التذكارات، لكنى لم أخرج شيئا. قلتُ في نفسى « المسألة لا تحتاج لاجترار وإنما لعملية عصر ». وعصرتُ ذهنى، إلا أننى لم أوفق فتعجبت « لهذا الحد خرب يا فوخك؟ » ، وإذ أهش غمامة الناموس التى غلفتنى ، اهتز

يا فوخى لصوت آمر. إشتر واحدة من صحف الصباح، اعرفُ منها التاريخ، وامض فى طريقك، فهززت رأسى أن نعم، وابتسمتُ « يا بلاش التاريخ بعشرين قرشا » . غير أنى عدتُ واستبشعتُ شراء التاريخ بالفلوس، وقلتُ: التقاويم ونتائج الحوائط كثيرة، ونظرة واحدة إلى دكان كفيلة بحل المشكلة . واستطبت المشى المجنح فوق أكوام القش ومصاصة القصب ونشارة الخشب المنثورة فوق الطين، تارة تجاه دكاكين هذا الجانب، وأخرى تجاه دكاكين الجانب المقابل.

فى أول الأمر استمرأتُ النظر بطرف عينى، أو الميل برأسى قليلا أثناء مشيى حتى لا يبدو الأمر متعمدا، فيسألوننى عن السبب فأجيب، فيضحكون علىّ. إلا أننى لم أجد بدا من التطواف أمام الدكاكين. أقف أمام الدكان منها وأضغط نصفى العلوى على البنك الخشبى أو الرخامة أو الفاترينة. وقد أشب على أصابع قدمى، أو أقف على حجر أو قفص أو دكة، المهم أن أدخل رأسى إلى أقصى ما أستطيع، وأتلفت يمنة أو يسرة باحثا عن بغيتى.

كتمت ضحكات رعناء كادت تشق صدرى، على الرغم مما أنا فيه، وأنا أرى الدهشة تعقد ألسنتهم وتلوى شفاههم فلا يتكلمون، وأظهرتُ براعة عندما كتمتُ خليط المشاعر التى تنازعتنى لما

اجترأ أحدهم على الاعتراض فأسكته أكثر من صوت « هس .. إنه المفتش الجديد » .

لكنى ارتعبتُ لما بدأتْ خضرة المزروعات تبين فى آخر الطريق، قلت « ها قد اقترب منزل صديقى ولم أعرف التاريخ بعد » . ولمتُ نفسى لأننى لم أعرج - وقت مرورى بالمدينة - على أى من بائعى الصحف، غير أنى عثرت من بين دكاكين القفاصين والخواصين ونجارى الطبالى والسواقى وتلال المقاطف والأسبتة والفئوس، على دكان لبيع الخردوات. ولأن مثل هذه الدكاكين تبيع عادة الأجندات ونتائج الحوائط والمكاتب مع الخرز والترتر وخيوط اللعلاع، فقد استبشرتُ ومنيتُ نفسى بزوال الغمة. إن لم أجد واحدة مستعملة فى دكان سأشترى أجندة أو نتيجة مكتب صغيرة تصلح لأن أدسها فى جيبى. رأيتُ الأسعار فلمتُ نفسى « مئة وخمسون قرشا بدلا من عشرين، هذا جزاء التردد» .

تخيلتُ وجه صديقى عندما أحكى له فيما بعد هذه النكتة، ثم أخرجتُ نقودى وأشرتُ إلى ما اخترته: « جديدة ؟» . قال الرجل: «نعم»، فتلقفتها بسرعة وانزويتُ بها بعيدا عنه . نفضتُ عنها الغبار وفتحتها فإذا بأوراقها بيضاء فى لون اللبن. رجعتُ إليه من فورى، فحدجنى بعينين رصاصيتين « ماذا تقصد ياأستاذ؟» . تلقيتُ

رصاص عينيه وانسحبتُ مرتدا إلى المدينة.

اندفعتُ صوب أول بائع للصحف التقيته. نقدته عشرين قرشا وسحبتُ واحدة من صحف الصباح. غرزتُ عيني حيث اعتادت الصحيفة كتابة التاريخ، غير أني لم أجده. « أي نحس هذا؟ ». نظرتُ للبائع وللصحيفة ، ثم هجمتُ على صحيفة أخرى. فأخرى وأخرى، دفعني البائع من كتفي وصاح: « على مهلك يا أستاذ .. قطّعت الجرائد..».

السكوت لم يعد أمرا محتملا. هذه المدينة تتآمر علي. إما أنا وإما هم.

انقضضتُ على مجموعة تجلس على مقهى يطل على الترعة « لا مؤاخذة، ممكن أعرف منكم تاريخ (النهارده) ؟». نظروا إليَّ بعيون امتزجتْ فيها معاني الشك، والاستعلاء والاستغباء. شد كبيرهم نفسا قويا فكركرتْ الجوزة. قلت: « اعذروني، نسيته ». قاربوا بين رءوسهم وأخذوا يتهامسون. ينظرون إلي ثم يتهامسون. بعدها، نهض إلي أحدهم ووضع ذراعه على كتفي وسحبني بمودة بعيدا عنهم، قدم لي سيجارة لف وقال: « لا تؤاخذنا يا سيدنا الأفندي، كلامك أصله غير مفهوم ... ونحن كما ترى فلاحون على قد حالنا ». أسرتني لهجته الودود فقلت في نفسي: « هذا رجل

يسهل التعامل معه » . مبادلا وده بود فعلت نفس ما فعل . طوقت كتفيه بذراعى وهمست له : « الفلاحة ليست عذرا ، أنا أيضا فلاح ابن فلاح» فزام وشخط ونطر وضربنى فى صدرى « غُر من وجهى يا قفل » . وتذكر سيجارته اللف فسحبها من بين أصابعى وأعطانى ظهره .

وثبتُ من فوق سحلية فوجئتُ بها بين قدمى ورجعتُ أذرع الطريق نحو بيت صديقى متحسرا على لمعة حذائى وأطراف بنطلونى وقد غطاها الوحل . « أى نكتة مرة هذه ؟ » . وإذ أغذ السير صافعا جذوع الأشجار التى التقيتها ، وضاربا الجيف الطافية فوق مياه الترعة بثقيل الحجارة ، توقفت وفكرت أن الخطأ بالتأكيد خطأى . فلربما رجع بياض أوراق الأجندة إلى خطأ مطبعى ، ولربما لم أنظر بالضبط إلى مواضيع التواريخ فى الصحف التى تفحصتها ، لكنى بالتأكيد أسأتُ التعبير واستخدمتُ ألفاظا ذوات معان مختلفة ، وإلا فلماذا لم يفهمونى على كثرتهم ؟ . على أية حال لا يصح أخذ (العاطل بالباطل) ففى مكان ما يوجد ـ ما من شك ـ من يمكنه أن يفهمنى أو من يمكننى إفهامه .

وعدتُ أهش الناموس وأقفز متفاديا روث البهائم ومياه (الحموم) والقطط الميتة وأسأل المارة والجلوس ، المتسوقين والمتسولين ،

المقهقهين ومقطبى الجباه، لا عبى السيجة وراكبى الحمير، عما إذا كانت لديهم فى مدينتهم هذه مدارس أو محاكم أو مكاتب تلغراف وبريد، عن مواسم البذور والجنى والحصاد، عن الرى وكيفية التميز بين رية بكره عن رية (النهاردة)، عن المدة التى أمضوها فى بطون أمهاتهم وكيفية حسابهم لأعمارهم، عما إذا كانوا يتابعون حركة الشمس والقمر ، وعما إذا كانت سماؤهم حقا سماء، صرختُ: « أليست لديكم ساعات، راديوهات، تليفزيونات، وموظفون يقبضون رواتبهم أول كل شهر ؟». طفتُ بكبار السن : « حدثونى عن مواقيت الصلاة والصوم والزكاة والحج، عن القطارات ومواعيدها، عن السوق ويومه. ألا تستلفون أو تُسلفون؟ ألا تكتبون عقودا؟ ». وطفقتُ أصيح « متى يظهر بدر التمام؟ متى تأتى الأعياد؟ متى تغرقكم الأمطار؟ ». وضربتُ على بطيخة « متى تجمعون البطيخ؟ ». ولم أتوقع أن يفعل بائع البطيخ ما فعل، فقد رشق سكينه فى خشب العربة وفح مسلطا عينيه فى عينىَ « وإيمانات الله . إن لم تبتعد عنى لغرستها فى عينيك ». سكتُ غير أنه أمسكنى من قفاى . فوجئتُ ولم أشعر إلا بالناس وقد تحلقوننا « هيه ... ماذا حصل ؟ ... قل يا بشندى ... إحك يا أفندى » .. قال البائع « يبدأ هو » . قلت مستشعرا الخطر : « لا

مؤاخذة يا بهوات، أردت فقط معرفة تاريخ (النهاردة) .

على الفور توقف اللغط وتعطلت الحركة ونظروا إلى بعيون نعقت فيها بومات الاسترابة . تململتُ وأصلحتُ من بدلتى التى كرمشتها أصابع البائع وعزمتُ ألا أخوض فى هذه المسألة مرة أخرى، غير أنى فوجئت بدوائر العيال تحيط بى وتهتف مصفقة وضاربة على علب الصفيح « الأهبل أهه .. المجنون أهه » . نظرت إلي الخضرة الملامسة لمنزل صديقي ، وحاولتُ أن أفتح لنفسي ثغرة أهرب منها، لكنى لم أفلح، فقد هجموا علىّ وألبسونى مقطفا وعبأوني فى زكيبة .

الدقة الأولى بعد منتصف الليل

لا أسمع شيئا حين نكون معا، لكن حين تدق الساعة دقتها الأولى بعد منتصف الليل وتصفر فى أحشاء الليل الريح، أذرع أرض الغرفة، أنظر عبر شق الباب، أحتسى شايى مكتئبا، أنقر على زجاج الكوب أو أمزق كتبا وأصيخ السمع.

هذا الصوت الخفيض، هذه الرنة البطيئة الخافتة، أتكونين أنت بقوامك الممشوق، وبسمتك الرقيقة ووجهك الرائق؟ ... نعم ... أنتِ ... أنتِ ... بوقع خطاك المجهولة، يعلو.. يدنو ... تئز الدرجات ويخفق الممشى.

أفتح الباب فيغزونى الوقع، وهفهفة ثوبك الشفيف تلهب وجهى فأدفنه فى دفء الصدر الخافق بدقات القلب المفعم، ويغمرنى عطرك الفواح.

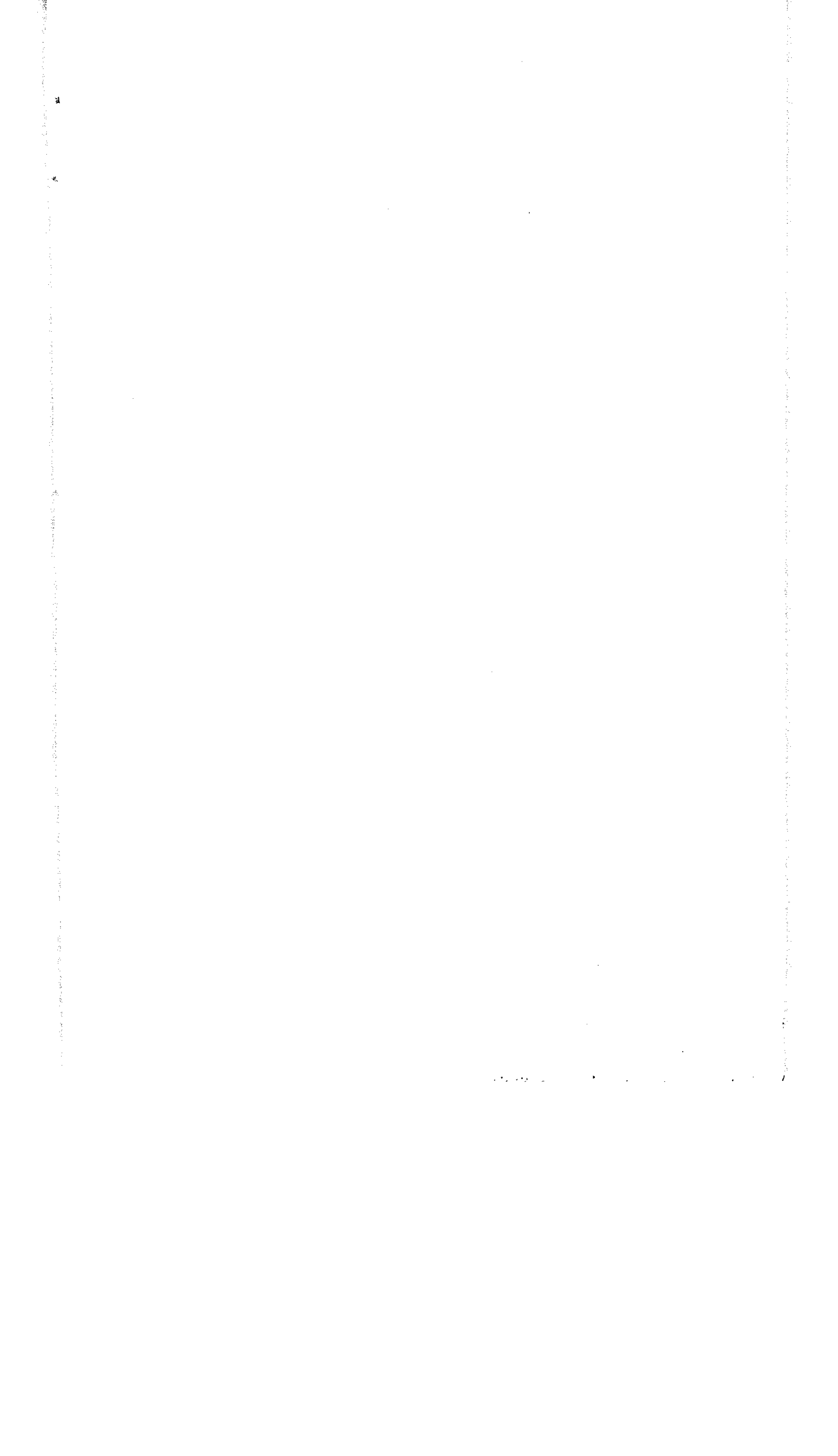
وإذ أرفع رأسى إلى الباب المفتوح لا يزال، ألمح فى ضوء القمر النائم فوق البحر سحابة نحاسية الأطراف، تستدير نحونا فى بطء ثقيل.

قلت لك : ثمة شىء يحدث فى الكون ... ثمة شىء ... و ... وما كان لى أن أُكمل، فقد تناثر النحاس منفجرا بصيحات النوارس وخفقات الأجنحة البيضاء، ومتلونا بلون النحاس علا الزبد البحرى، واصاعد فقاعة ضخمة، دفعتْ سحابات الطيور، وفرقتها

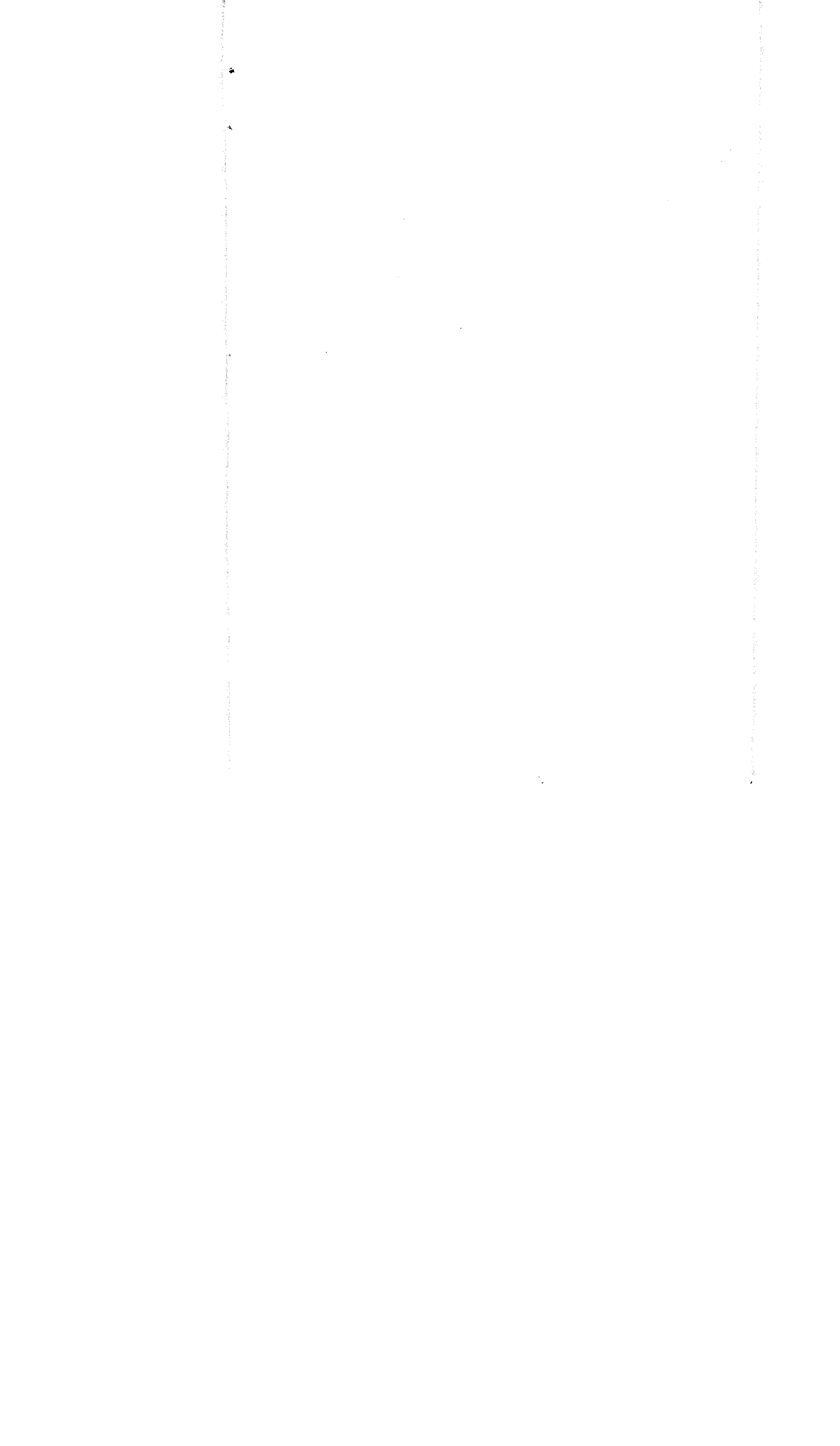
جزرا عديدة، هجمتْ على الباب المفتوح، واقتحمتْ هدوء الغرفة، وأخذتْ تحوم حول المصباح ناثرة بصقات سوداء تقطع خيوط الضوء .. تبعثره. تلفنا المناقير النهمة صائحة، تشد ثيابنا المبتلة بالعرق. تنهشنا .. نهشها فى فزع مرجوف. تُسقطنا. ننهض، نقذف بالأشياء فى فراغ الغرفة. يتأرجح المصباح ململما أطراف ضوئه الممزق. أشعر بنفسى مسحوبا إلى الجدار. المناقير البرتقالية تلتمع فى ومضات متقطعة. العيون المستديرة تبرق، أدفع مقعدا للسقف، يزداد تأرجح الضوء عنفا، أطوح ساعدىّ فى الهواء خشية السقوط. أحتمى بمنضدة، ألمحك تجاهدين. تنتزعين ذؤابات شعرك من المخالب المحيطة وقد غضن الفزع محياك، وأطل الرعب من عينيك. تفور فىَّ الهمة. أُفلح فى القبض على عنق واحدة. أضغط . أشد. انتفاضة الجسم الدافىء، طقطقة العظام، واللسان المدلى. أنزع بندول الساعة. أطوح به يمنة ويسرة. أخبط واحدا. ثانيا. ثالثا. أدوس عليها بقدمى، أدفع الأجنحة عن رأسى، أضغط، أضغط، أعصر، نثار الدم يعلو حذائى، البرقشات الحمراء فوق بلاط الغرفة. يسقط منى البندول. أراك ما تزالين تدفين بذراعيك وتحركين رأسك فى كل اتجاه، أُمسك بواحدة كادت تنهش إحدى عينى، أقضم رقبتها بأسنانى، ينسال الدم فوق شفتى

وذقنى، يسيل عبر عنقى وملابسى الممزقة وتعلق بلوراته بشعر صدرى. نتف الريش والزغب والزعقات المحمومة. أشد الأجنحة القوية بكلتا يدى، أنزعها، المناقير المفتوحة والألسن الصنبورية وتأرجح الضوء فوق العيون المستديرة. وإذ يتعرى صدرك أندفع إليك متعثرا فتقتحم الغرفة سحابات أخرى. آه ... يا لنقاء نهديك الوديعين ... أُغمض عينىَّ وأهش بمزقة من قميصى زحام الريش والمناقير والأرجل. وإذا أفلح فى الاقتراب منك تقتحم الغرفة سحابات أخرى. تشدنى المخالب البرتقالية وترطمنى بالحائط. أتهاوى. يتناثر الزغب ندفا قطنية مخضبة بالدم، أنهض، تُسقطنى خفقات الأجنحة، أنهض، تسحبنى، وانقض منقار فوق صدرك الناهد، شقتنى صرختك فنهضتُ ... وكبوتُ ... وتكورتْ فوق البياض الخافق بلورة حمراء تضخمت وكبرت ثم تدحرجتْ جَارَّةً خلفها خيطا أحمر رفيعا...

آآآ ه ... واختفيتِ.



متتابعة لا منتمية



(١)

تجشأتْ الباخرة البعيدة، وبصقتْ دخانا أسود، تلقفته الريح المثقلة، ومطته، وضغطته، ونثرته فى الفضاء برقشات ضئيلة، ينعكس ظلها فوق الزبد المصفر، والقوارب المائلة عند الشط، حيث الشباك المكومة، وقطع الفلين المدلاة، وساقى الدركى الممددتين على طولهما من وراء أحد القوارب، وقد اندست بينهما مؤخرة بندقية.

(٢)

كنتُ متعبا ومبللا بالعرق بعد ما أنهكنى شجارى مع أخوتى، ولم تكن هناك فى جحرنا قطرة ماء فقلتُ ها هو البحر فيه متسع لى ولآلاف من أمثالى.

(٣)

وسط كومة من طحالب البحر والقواقع التى لا تؤكل وديدان حمراء صغيرة تتلوى وتتحرك بالاتجاهات الأربعة، وجدتُ نفسى. قلت: إنها مخلفات صيد مبكر، تخطيتها، ووقفت فى مواجهة البحر العريض، أتأمل خط النفايات الطويل بطول الشط المتعرج بتعرج الماء، وأخذت أُقَلِّبُ بحذائى قناديل البحر الملقاة كتلا هلامية متراصة بلا حركة أو حياة. « لسعة القنديل تورم الساق لحجم

الفيل» . « لو قبض بأذرعه على محاشم الولد منكم فإنها تشده إلى جنية البحر » . وكانت أمنا تظن أن ذِكر الجنية يكفى لمنعى وأخوتى من ارتياد البحر، فالهلاك مع الجنيات واقع لا محالة. إما الموت وإما الزواج. وكنا نحن غلمان الإنس نتوق للزواج من بنات الجن، لكنهن أبدا لم يظهرن لنا.

(٤)

قلت: فلأخلع ملابسي، ولأنزل البحر، أستبرد وأستحم. فخلعتُ ملابسى ونزلتُ. غير أن رعدة قوية أرعشتنى قبل أن أستحم. قلتُ: إنها برودة الماء وليس خوفى من قناديل البحر الحية. وبللت جسمى بالماء قبل أن أغسط، وغطست.

وإذ أمتع نفسى بمتابعة فقاعات الهواء المتصاعدة لأعلى وسماع بقبقات الماء إذ يتحرك فى الأسفل، مرقتْ من أمام عينى سمكة ضئيلة الحجم. قبل أن تذوب فى الماء ومضتْ فى رأسي فكرة. « ربما تهرب من أخرى كبيرة » . أدرتُ ساقيَّ وحركتُ ذراعيَّ فانثنى جسمى واستدار محدثا دوامة غير مكتملة . ما أن تلاشت حتى وجدته أمامى. قنديل أزرق حى يقف فى مواجهتى تماما. انخلع قلبى. لو انقذف الآن نحوى فلن أستطيع فكاكا. ساق فى حجم الفيل أفضل من بنت ملك الجان، إن كان هناك جان

فضلا عن ملك وله ابنة. واندفعتُ لأعلى محركا الماء بقدمين حذرتين. ما أن لطمتْ الشمس وجهى حتى رحتُ أضرب الماء بقوة وعنف إلى أن وصلتُ خط النفايات، وهناك لم أجد ثيابى.

(٥)

أوصلتنى آثار الأقدام إلى قارب مسنود بحجر، لا تعلوه شباك، فقط قطعة من الخيش ترفعها أربعة أعواد من البوص. وثبتُ إلى القارب وانحنيتُ أسفل الخيشة فوجدته. أشعث ، أغبر ، جهم الوجه، لا ينقصه سوى حلقة فى أنفه وعصابة فوق إحدى عينيه الصقراوين، ليصبح قرصانا (سباتينيا) ...

قلتُ: من أنتَ؟

قال : أنا هو أنا ... من أنتَ؟

قلت: ثيابى.

قهقه بصخب أنهاه بأن غرس سكينا فى خشب القارب:

- لا شىء لك عندى ...

ودفعنى بقوة فانقذفتُ وانقذفتْ الخيشة معى.

(٦)

قلتُ: ثياب خاصة أو خيشة ، إنها شىء يستر فى النهاية.. التففتُ بالخيشة، ودرتُ حول القارب أستجدى مَنْ بداخله أوراقى،

فألقى إلى بها، لكنها سقطت فوق مويجة سحبتها فى جزرها إلى البحر. عندئذ نهض الدركى وصوب بندقيته إلى:

ـ اثبت.

وثبتَ.

ـ من أنت؟

ـ أنا ...

وألقى بى على الرمال وأمرنى بأن أتقلب أمامه حتى الأسفلت.

(٧)

فى المخفر كانوا عراة، بعضهم يرتدى لباس البحر، وبعضهم يرتدى قطعة وحيدة من ملابسه الداخلية. الوحيد المميز عنهم هو أنا، فالخيشة تستر جزءا كبيرا من جسمى.

قالوا لى إن البحر أغراهم، وإنهم حينما خرجوا منه، لم يجدوا ثيابهم. وعرفت أنهم اكتشفوا مثلى وجود الرجل الجهم صقرى العينين، وأنه قذف لهم، الواحد تلو الآخر، بأوراقهم، وأن البحر مد أمواجه وسحبها، وانتهوا إلى أن الدركى هو الذى دحرجهم أمامه وجاء بهم إلى حيث يتكومون الآن.

(٨)

أوقفنى الحراس أمام الرجل الوحيد الموجود بالغرفة ثم انصرفوا

قال: ما الذى ذهب بك إلى البحر؟

قلتُ: أخوتى..

قال: آه .. أخوتك ..

وضغط زرا وقال شيئا فظهرتْ صورهم القديمة.

قال: كلمنى عنهم ..

قلتُ: أحدهم أطلق لحيته وأحدَّ لسانه، الثانى ارتدى حذاء رجل مات وسار فى نفس طريقه، أما الثالث فقد ضرب الدنيا صرمة ويعب من كل شيء عبا.

قال: آه ... حسن ... ومع من أنت؟

قلتُ: لست مع أحد.

قال: لابد أن تكون مع أحد ..

وعبث بأزرار قميصه: ... شيء نحاسبك على أساسه.

قلتُ: لستَ مع أحد ... إننى أبحث عن مخرج.

قال: آه ... أنت إذن من الباحثين ..

ثم أعقب: اخلع خيشتك.

قلت: أأأ ...

فنهض إلى وسمر عينيه فى عينى وغزنى بسبابته:

- حينما يقول المحقق لمخلوق افعل كذا، فلابد أن يفعل.

ثم صرخ: اخلع.

فخلعت.

نظر إلى ما بين ساقىّ وجس الخصيتين وشد شعرة من العانة وتمتم: عظيم .. عظيم .. ثم ضغط زرا وقال للحارس: لائق ... فسحبنى الحارس للخارج، ولم أنس التقاط خيشتى.

(٩)

قادنى الحارس إلى ممر طويل، ومن بين الأبواب العديدة المغلقة فتح بابا وأدخلنى. بالرغم من أننى لم أر شيئا إلا أنه أمرنى بالانحناء لمن فى الغرفة، فانحنيتُ، على الفور رأيتُ ثلاث نساء، نظرتُ إليه مستفسرا إلا أنه كان قد غادر الغرفة وأدار المفتاح فى القفل. قلتُ فى نفسى: هذا زمان العهر، أى شىء فى يديك؟..

وأقبلتْ على ذات الثوب الأزرق وقالت : هيت لك. ثم أمسكت يدى: لا تأت ذات الثوب الأحمر .. إنها غولة وفى حقيبتها منجل تقطع به الرقاب. وتناولتْ ذات الثوب الأحمر وجهى بين كفيها وقالتْ: هذه العجوز ، لا تسمع كلامها، إن لها ساقى عنزة، وما بين فخذيها ليس إلا مكيف من جنرال موتورز. لكنى كنتُ مشدودا إلى تلك النحيلة الشاحبة التى ظلت فى مكانها لا تريم. صحيح أن بشرتها أكثر دكنة وشعرها أكثر تجعيدا لكنى أحسست بميل شديد

إليها، فأشرتُ ناحيتها وقلتُ: هذه هى التى أريدها.

صاحتْ ذات الثوب الأزرق: هذه ؟!.. (وكادت تغرز سبابتها فى عين السمراء) .. إنها عبدة إحسانى .. وهوت بكفيها فوق الصدغ المتيبس فتزلزلت بينما تلقفتها ذات الثوب الأحمر بين ذراعيها وربتت على شعرها المجعد ونظرت إلي: إنها صديقتى.. (وأمالت رأسها إليها) أليس كذلك ؟.

استدرتُ إلى الباب من فورى وصرختُ: أخرجونى.. لكن ذات الثوب الأزرق هجمت علىّ ونزعت عنى الخيشة فتعريتُ. جريتُ منها عبر الغرفة .. النجدة ... النجدة .. وكدت أحتمى بذات الثوب الأحمر التى لم تفعل أكثر من أن مدت إلىّ أحد ذراعيها بينما ظلت تحتضن ذات الشعر المجعد بالثانية... النجدة ... النجدة ... وأمسكتنى ذات الثوب الأزرق من عرقوبى . طرحتنى أرضا وارتمت فوقى وأخذت تستحلبنى بشبق له قباع. أفقتُ على نفسى بجوار الحائط وذات الثوب الأحمر تمد يدها إلى: تعال أعوضك حنانا ورقة. لحظتها أزاحت ذات الثوب الأزرق شعرها الملبد بالعرق عن عينيها، وفَجَّرَتْ ضحكة شوهاء: ها ها ها ... لم يعد به نفع ... ها ها ها.. لم يعد به نفع.

عندئذ دخل الحارس وجرنى إلى الخارج، وقبل أن يقفل الباب

رأيت السمراء تجهش بالبكاء فبكيتُ. وعندما سحبني على بلاط الممر تذكرت أني نسيت خيشتي في الغرفة.

(١٠)

قال المحقق: اعطوه لجامع القمامة، ونبهوا عليه بأن يلقيه في البحر.

(١١)

في عربة القمامة تذكرت أخوتي فقلتُ في نفسي:
- لو لم أتشاجر معهم ما كنت هنا الآن. وقلتُ: لو قرأتُ في الكتب لحددت طريقي وأوقفت كلا منهم عند حدوده.

وتعجبتُ: كيف وهم المختصمون دوما يتحدون ضدي. ثم تثأبتُ: ما الفائدة، ها هي مراسم القائي لقناديل البحر قد قاربت على الانتهاء.

وقبل أن أغفو تمنيت لو أن الخيشة معي، فلو كانت معي الآن لتوسدتها واسترحت من هزات الطريق.

(١٢)

قال جامع القمامة بعدما غزني لأستيقظ:
- أنت صغير على البحر.
قلتُ: ضاعت الخيشة ... ثم همستُ:

- إننى أخاف قناديل البحر الحية.

قال: خيشة أو غيرها، ما الفائدة.

ثم أوقف عربته أمام تلال القمامة وقال:

- خلف هذه التلال بئر القمامة .. يأتى البلدوزر ليلا ويلقى بهذه التلال فيها.

وأعقب: سأخدمك خدمة العمر وأريحك من قناديل البحر، سألقى بك فى البئر، وأرجو ألا أفقد وظيفتى. ثم لفنى بالقاذورات وأوراق الكرنب وأنزلنى من العربة ودحرجنى بلطف إلى البئر، ثم صاح: قد يلتقطك قبل الليل بعض السيارة ... وإلا ...

(١٣)

قلت: ها أنذا أموت بشكل طيب. القمامة أفضل من قناديل البحر، وإن كنت لا أعرف هل تفضل جحيم أخوتى أم لا. ثم غفوت.

(١٤)

استيقظتُ على صوت شيء يتكسر. نظرتُ فإذا بفأر يقضم من كسرة خبز كبيرة. نظرت إليه وقلتُ: لأمد يدى فلعله فأر طيب. لكنه عضنى فى كفى عضة صرختُ لها، ولما اكتشفتُ أن صراخى قد ينقذنى من هذه البئر، فقد صرختُ بأعلى صوتى

وكــررتُ الصـــراخ، إلا أن هدير البلدوزر غطى على كل شىء وسقطتْ كتل عديدة فوقى.

(١٥)

لا أدرى كم من الوقت قضيته. لكنى لم أشعر بجوع أو عطش ولم تعد تنتابنى تلك الاختلاجات التى كنتُ أردها إلى التوتر وفوران المشاعر التى طالما أجهدتنى. قلت: لعله لم يمض وقت على الاطلاق. وأحسستُ بالأشياء التى تعلونى وقد خف وزنها. لم أع ذلك بسهولة، لكن عندما تحركتْ الأشياء التى تعلونى مباشرة واختفتْ وأصبحتُ أنا أقرب الأشياء إلى الفراغ، عرفتُ أن شيئا ما يُفرغ البئر. عندئذ هبطتْ كلابتان وحملتانى أنا والأشياء التى أعلوها وألقت بنا فى عربة.

(١٦)

أُفرغنا فى حوض كبير وسُكبتْ علينا المياه من كل جانب، وامتد ذراع حديدى ضخم يقلب فينا. فى إحدى مرات الطفو النادرة سمعت صوتا:

ـ من يصدق أنه من هذه العفونة تُصنع أشياء لها قيمة؟

ثم انفتحتْ فوهة وسكبت مع الأشياء إلى صهريج مسقوف. رُشت فوقنا بعض المواد، وأدارتنا دوامة شديدة أخذت ترطمنا

بالجدار وتعيدنا وترفعنا وتهبط بنا حتى أحسست بأن ما يحيط بى ليس أكثر من سوائل. صحيح كانت ترتطم بى بين الحين والآخر حصاة أو جسم صلب لكن نادرا ما يحدث هذا، فقد ذابتْ أشياء كثيرة، ثم انفتحت فجوة وانسكبتُ عبر ماسورة ضخمة إلى مصفاة عريضة.

(١٧)

انسابتْ السوائل من ثقوب المصفاة وترسبتُ بجوار بعض الأجسام الصلبة، سمعتُ صوتا:

- انظر ... انظر إلى هذا الشيء... إنه غير قابل للذوبان.

رد آخر:

- لا تبال ... إنه نوع مقرف من الروث.

وقذفتنا المصفاة إلى غرفة ضيقة.

(١٨)

هبطت مدقة وفلطحتنى، ثم التقطنى شىء ألقى بى إلى مكبس ضغطنى مع الأجسام الأخرى ثم قذف بى إلى زلاجة أوصلتنى إلى صندوق عربة القمامة.

(١٩)

قال لى جامع القمامة:

- ما رأيك ... أليست خدمة العمر؟

ثم حملنى ورمانى فى البحر.

(٢٠)

عندما تجشأت الباخرة البعيدة، ونثرت الريح دخانها الأسود برقشات ضئيلة ينعكس ظلها فوق الزبد المصفر والقوارب المائلة فوق الشط، حيث الشباك المكومة وقطع الفلين المدلاة، كنتُ أرقد وسط قناديل البحر الميتة، ينتظمنى خط النفايات، منتظرا انحسار الظل من فوق ساقى الدركى الممددتين على طولهما من وراء أحد القوارب، لأتبين إن كان لا يزال يحمل بندقيته أم ... وتساءلتُ هل يمكن لأخوتى أن يأتوا البحر فيلحظوننى.

الرمــاديــون

حقيقة إن ولعى بظلال الأشياء لا يُجارَى، فأنا أحب الأسود والرمادى وما بينهما من درجات، وشغفى بالتطلع إلى السحب الدكناء لا يدانيه شغف، وإذا ما وقفت أمام البحر أتأمل وجهه الرصاصى المندى بغيمات البخر، فإننى من فرط النشوة لا أملك إلا أن أمدُ يدىَّ المرتعشتين ذهولا وأربت عليه حانيا مناغيا. وأحب الأزقة المظلمة، والعمائر الدكناء، وعتمات الأبواب والنوافذ، ومبانى الحكومة التى لا أعرف أية مصادفة سعيدة جعلت كل مبانيها ذات ألوان رمادية، لذا فإن أحب أوقاتى تلك التى أتريض فيها حول دواوين ومستشفيات وسجون الحكومة.

وأرجو ألا يفهم خطأ أننى من أولئك الذين يخشون الضوء ويتحاشونه. أبدا، فإذا ما تصادف وأوقعتنى الظروف - وغالبا ما يحدث هذا - فى شارع مضاء، فإننى لا أُغطى عينى بصحيفة المساء وأفر منه مثلما يفعل المغفلون من أعضاء نادينا. على العكس، فإننى أتباطأ تحت أعمدة النور، وأتعمد متابعة ظلى - وأحيانا ظلالى - سواء من أمام أو من خلف، وقياسى لأطوال ظلالى هواية أعتقد أننى أتقنتها. إن لارتفاع المصابيح، ولأعدادها، ولقوة الضوء ونوعه، وللمسافات فيما بينها، ولطول الشخص وامتلائه أو جوعه، ولتعرجات الطريق ، والعوائق آثارها

على أطوال وأحجام وشفافية وأعداد الظلال وطريقة تداخلها.

تميزى هذا، جعلنى من أبرز المرشحين لعضوية مجلس إدارة نادينا فى انتخاباته المقبلة . ولا أخفى عليكم، أنا أطمع فى الرئاسة، فماذا يعنى كونى مجرد عضو إدارى، أنا الذى أرغب عن صدق وإخلاص فى نقل عصارة خبرتى إلى كل منضم إلى النادى؟ .. صحيح أننى لم أفصح عن رغبتى هذه حتى لخاصة الخاصة، لأننى انتويتُ مفاجأة الجميع بها فى آخر وقت، وصحيح أن الانتخابات لم تبدأ بعد، لكن إحساسى بأننى أمتلك الكثير من أوراق اللعبة يملؤنى زهوا، ولعل هذا الزهو، الذى بدأتُ أرى آثاره على الآخرين، هو الذى يدفعنى لمضاعفة جهودى يوما بعد الآخر، لذا، فأنا مشغول جدا هذه الأيام بالدعاية لنفسى، ليس فقط عن طريق المناظرات والندوات التى ينظمها النادى، ولكن فى أى مكان التقى فيه بأى عضو، فى ظل شجرة، أو جدار، أو مظلة، أو حتى فى أمكنة العمل.

«... بين الأسود والأبيض درجات متعددة الألوان». كنتُ - ومازلتُ - لا أنى أردد هذه العبارة فى مستهل كل أحاديثى، وأثنى على قائلها المجهول ، وأتعمد تقديم السواد على البياض وتجاهل كل ما يتعلق بهذا الأخير. وما من مرة فى أثناء شرحى لما تعنيه

هذه العبارة زايلني حرصي على عدم التطرق إلى ما يعنيه البياض من برودة وموت وجهالة.

ولا أنكركم القول، فإنه لمما ينعشني أن عديدا من زملاء النادى يقدرون جهودى وإخلاصى للمبادىء التى أقسمنا لها. ومنذ ابتكرت شعار النادى ودرعه وأنا لا أقابل من المخلصين من الأعضاء إلا بالتصفيق وأحيانا بالهتاف، خصوصا فى أيامنا الأخيرة هذه التى اشتد فيها وطيس الدعايات المضادة التى يروج لها مرشحون لا يفقهون معنى ما يقدمون عليه، وكان عملا موفقا منى حينما توجتُ جهودى فى الآونة الأخيرة بوضع مشروع خطة الدعوة والإعلام الذى جاء ترجمة حقيقية لمبادىء وأهداف النادى، الأمر الذى دفع بأحد المتحمسين، بعد الهتاف بحياتى، إلى القول بأننى جئتهم حقا بلبن العصفور، إلا أنه إزاء نظرتى المصححة فطن إلى خطئه، إذ كيف يُشبِّه عملا يخص النادى بشىء ليس فيه مجرد بياض، ولكنه أبيض بياضا خالصا.

للحقيقة، فإن ثقافات عدد غفير هن أعضاء النادى على درجات عالية من الضحالة، لا يمكن لمنصف مثلى أن يتجاهلها، فكثيرون لا يستطيعون الخوض فى فلسفات الظلال لأكثر من دقائق، وبعضهم قد يستمر فى الحديث عنها لأكثر من ساعة، لكن

بأسلوب عنيف ومنفر، فضلا عن أنه إذا ما أجبر على ترك الميكرفون تراه مبتلا بالعرق، ملوى الشفتين، عصبيا، وإزاء ميله الطاغى إذ ذاك إلى المقاطعة - غالبا ما يحدث هذا فى مثل هذه الحالات - فإن المشاجرات ما تلبث أن تبدأ ، فترتفع المقاعد وتتكور القبضات.

وعلاوة على ضعف الثقافات، فإن كثيرين منهم تنقصهم الخبرة والدراية بكيفية التعامل مع غير الأعضاء، أولئك الذين نرى أنهم أعضاء النادى المستقبليين، كما يقول أحد شعاراتى، وكذا ينقصهم الذوق الذى يتماشى مع أهداف النادى، فضلا عن افتقادهم المقدرة والرغبة فى التدقيق. فكثيرا ما نرى فى الاجتماعات التى تعقد فى عقر النادى أربطة عنق وأزرة، وأحيانا سترات وأحذية مشوبة بالبياض. وبالرغم من أن مثل هذه الأمور تسبب لى إزعاجا كبيرا، إلا أن وعيى الحاد بحقيقة الأوضاع الاقتصادية والثقافية للأعضاء كان - وما يزال - يحتم على غض الطرف فلا أوجه لوما لأى عضو مهما كان إلا إذا كانت المخالفة صارخة وعلى قدر من الجسامة. وفى كل مرة أعلق الأمر على الوعى ومسئولى التوعية. صحيح أن أمرا كهذا غالبا ما يثير ضدى حفيظة مسئول أو أثنين، إلا أنه فى النهاية أكسبنى شعبية لا ينكرها

إلا حاقد أو موتور.

وطبيعى مع كل هذه الحماسة أن يخرج الأمر عن نطاق النادى ويتسرب إلى خارجه. إنها الطبيعة البشرية. وهو ما حدث فعلا، إلا أننى كنتُ قد تحسبتُ لذلك، فلم تدهشنى نظرات زملاء العمل والمقهى والجيران. أكثر من هذا كنتُ استمتع بمراقبة مظاهر الجد التى تكسو ملامحهم إذ تتبدل وتتحول، فور إشاحة وجهى، إلى سخرية أو استهزاء أو ما شابه. وكنتُ أتلذذ بتتبع حركات الأصابع الحذرة إذ ترتفع إلى الشفاه الهامسة بكلمات أوقن أنها تخصنى. وحينما تناهى إلى سمعى أنهم باتوا يسموننى « الرجل الظل » سعدتُ جدا، وهنأتُ نفسى، وقلتُ هاأنذا أصبح رمزا للنادى ومُثله، حتى قبيل الانتهاء من الانتخابات والسيطرة على مقاليد الأمور فيه. أما السخرية والاستهزاء فما أسهل أن أتغلب عليها بكياستى وخبرتى المعهودتين. فالأمر لا يتطلب أكثر من أن أبدأ هجوما فوريا. وبالرغم من انشغالى بإشعال فتائل الحمية فى نفوس أشياعى فى انتخابات النادى، فقد رأيتُ أنه من الأفضل أن أهجم. فعلتها وهجمت، فأسَرَّ بعض خلصائى بأن ما أفعله فيه إرهاق لى. وكنتُ أقرأ فى أعينهم أنهم يغبطوننى على طاقتى التى لا تنفد. وكنتُ أضحك وأقول إن نشاطى الخارجى موجه فى الأصل لخدمة

أهداف النادى، واخترتُ لما أفعل اسما رنانا « إنه العمل الجماهيرى ». أليست الجماهير هى هدف النادى وغايته؟ .. وكنتُ أضحك، وكانوا يقولون بألسنة حالهم « إنه الاعجاز ... إنه الاعجاز ». نفس الأمر كانت تصافحنى به ملامح كل من أتصيده من زملاء العمل والمقهى والجيران. أكثر من هذا فإن بعضهم كان يقف أمامى مبهوتا ويقول بأنه لم يقابل فى حياته آدميا مثلى. وعلى الرغم من التواضع الذى جُبلت عليه، فإننى كنت أتيه فرحا بقول مثل هذا، وأعتبره اعترافا صريحا بما أتمتع به من قدرات غير عادية. والحقيقة، فإنه لم يكن أمام قائل مثل هذه العبارات من خيار سواها، ذلك أننى فور التقائى بهدفى كنت أقوده إلى أقرب ظل لشجرة أو لجدار أو لمظلة وابتدره بقولى « إذن فأنتم تسموننى الرجل الظل؟». على الفور - وهذا ما يحدث مع الجميع - تشدنى تلونات الوجه ولجاجاته ومحاولات الإنكار والتنصل بكلمات لا فائدة منها ولا دلالة لها. وكنتُ أتلذذ إذ أراهم، الواحد منهم تلو الآخر، أسرى مباغتاتى فأُحصروا فى زوايا الجُدُر وواجهونى مواجهتهم لملك الموت. وبمقدرة المتمكن كنت أسدد ضربتى التالية فأقول : « ماذا جرى؟ ». « الخوف ضار جدا بالصحة ». « إننى لست غاضبا على الاطلاق ». وإزاء انفتاح أفواههم الدهشة

أضيف : « على العكس، إننى أعتبر هذا واحدا من أعلى الأوسمة التى يمكن للمرء أن يتباهى بها ».

بعد ذلك، كنتُ أميل برأسى وأنظر إلى ظلمات الحلوق والأشداق، وبدربة لا يملكها سواى، كنت أقيس ما تتمتع به من عمق واتساع وكثافة. وحتى لا أتهم بأننى أزهقت عددا من الأرواح كان من الممكن أن تنضم للنادى، وولاء منى لروح ونص قانون النادى الذى ينبذ العنف من أساسه، فإننى كنتُ أتبسط معهم وأُسَرِّى عنهم قدر استطاعتى، بالرغم من أن فعلا كهذا يُعَدُّ تضحية منى بينابيع ثرة لبحوثى وتأملاتى. هل هناك أثرى وأدعى للبحث والتأمل من ظلال الأجواف؟ ... كنت أداعبهم بعبارات مثل « إن الأحزاب القوية تنشىء حكومات فى الظل » و « البلاد تدار دائما من الظل » و « البذرة أين تدفن ؟ »و « الطعام أين يذهب؟ » و « السجون ماذا تعنى؟» . غير أنهم - وهذه طبيعة البشر - ما أن يشموا أنفاسهم ويأنسوا فىَّ رقة ومودة حتى يبدأوا فى مناوشتى بعبارات جد تافهة وسخيفة. كأن يقولون « حدثنا عن المنافع التى حصَّلتها بعدما أصبحت ظلا لرئيسك »، أو « هل فى كون المرء ظلا لزوجته ما يُتْعِب؟ ». وقد يتمادون « يقولون إن غبار المكانس يفسد الرئة ». « هل صحيح أن صابون الغسيل المستعمل هذه الأيام

يتلف الأصابع؟» . ماذا فعلت عندما صفعتك زوجة الرئيس لما تأخرت عليها بالخضروات التى طلبتها من السوق؟» . « يقولون أنك جثوت على ركبتيك وقَبلّت قدميها » .

على الرغم من أن مثل هذه الأمور لم تكن تثير حفيظتى بالقدر الذى يبغونه إلا أننى كنتُ أحس فى صوتى شبهة ضيق، فأمية هؤلاء الأجلاف كافية لقتل حماسة أشد الدعاة إيمانا بمبادىء النادى، غير أنهم أخطأوا الرجل ، فلستُ ممن يمكن تثبيط همتهم. والدفاع ليس أسلوبى. صحيح أنه يضجرنى أن أجد نفسى مضطرا لشرح البدهيات من جديد، لكنها على أية حال متاعب الدعاة من أمثالى. وكنت أسأل بملء صوتى « ألايحتم قانون العمل والقانون المدنى خضوع العاملين لاشراف ورقابة وتوجيه صاحب العمل ؟ » . وأحيانا حينما لا ألمس فيهم استجابة فورية كنتُ أصيح، وقد تأخذنى الحمية - لا أنكر - فأحتد « إن سلوكى مع رئيسى فضلا عن أنه يتماشى مع مبادىء وأهداف النادى ، فإنه سلوك شرعى يتماشى مع قوانين البلاد والدين السائد » . « الدين أيها الكفرة » . « الدين » . ثم أبدأ فى رجمهم بغير ما هوادة بالأحاديث والمقتطفات التى لا تمل أجهزة الحكومة من بذل الجهد فى ترديدها، ولا تترك مجالا لشك فى أن الدين يحض على إطاعة

أولى الأمر والرؤساء.

ولأن تجاربي عودتني أن جهودي لا تذهب أبدا هباء ، فإن احتدادي في مثل هذه الأحوال لم يكن ليفت من عزمي وإرادتي ومقدرتي على التحكم في المواقف سواء مع الأعضاء أو غيرهم، وخير عزاء لي إذ ذاك هو تلك الحركة النشطة التي يشغي بها مدخل النادي. وما أسرع أن يتبدد حنقي ويزول احتدادي لمرأى المخلصين من الأعضاء وهم يمدون يد العون لسكرتير وموظفي النادي فيفتحون السجلات ويمنحون الايصالات ويعدون البطاقات ويساعدون المتقاطرين على النادي في نزع كل أبيض في أرديتهم ويمدون أيديهم بالقمصان الرمادية والكتيبات التي أعدها النادي خصيصا - بناء على اقتراح مني - لمثل هذه المناسبات.

وأنا عادة أطرب لهذه الاهتزازات والاختلاجات التي تعتريني كلما رأيت التحام الرمادي بالرمادي يتكاثف أمام مدخل النادي فيعاودني الحماس ويزايليني أي أثر للضيق، فأهتف في الذين احتشدوا من حولي وسدوا الشوارع وزحموا الأسطح والأفاريز، بطريقة تجعلني مضطرا لإمساك الميكرفون واعتلاء المنصة التي أعدها خلصائي لمثل هذه المواقف : « أيها الناس، تلومونني على علاقتي بزوجتي ؟ وما الزواج إن لم يكن عناق ظل لظل ؟ ». وإذ

يعلو اللغط وشـهـقـات الارتيـاح، أرفع صـوتـى ليعلو كل الأصـوات « هن ظلال لنا ونحن ظلال لهن ». فيعلو هتاف المخلصين وترتفع الرايات السوداء والرصاصية والرمادية فوق الرؤوس، وأتعمد وسط صـيـحـات الظفـر وتشنجـات المأخـوذين تسليط نظرتى على من يتصادف وجوده من منافسّى فى الانتخابات « انظروا إلى الانسان أين ينشأ ، هل ينشأ فى النور أم ينشأ فى الظلام ؟ ».« والنطفة من أين تأتى وكيف تُعطى ، فى النور أم فى الظل ؟ ». « والجسد حين يذوى ، فـى النور أم فى الظل ؟ » . « والشـمس حين تشـرق ، إلى أى شىء نـأوى ، النور أم الظل ؟ » . و « النـهـار مـاذا يكون إن لم يكن هو الوجـه الآخـر للظل ؟ ». و « الحـسـاب كـيف كـان يمكن للانسـان اكـتـشـافـه إن لم يكن هناك الظل ؟». و « السمـاء ألم يقل الفضائيون إنها عتمة وظل ؟ ». إننا نتصل بالجانب الحقيقى من الكون . « أيها الناس، أيها الناس ، تعالوا إلينا ... تعالوا وانضموا إلى نادينا ... كونوا رماديين ، وكونوا ظلالا ».

الرجل ذو الصحيفة المطوية

عبرتْ المرأة الناحلة المصباح فوق الضوء ودخلت . تخطت الممر القصير وإلى أول ترابيزة سوت جونلتها وجلست . كالعادة أراحتها عتمة الأركان ودوائر الضوء الكابى التى تبعثها الشموع المستقرة داخل الأكواب الزجاجية . أدارت ظهرها للباب فواجهت كل ما بالداخل ، بسط حمراء وستائر مخملية وترابيزات وكراسى فارغة فى الوسط ، أما تلك المحتمية بظلال الحوائط والأركان فيتناثر عليها ومن حولها عدد من الرجال والنساء، بعضهم أطفأ شمعته مستمتعا بلذة التخفى والمتابعة .

استوتْ فى جلستها وبحثت عن الجرسون . لم تجده فنظمت أنفاسها وريضت ناظريها بين الكراسى الفارغة وظلال الجالسين . التفت إليها بدين تجعدت الظلال أسفل لغده . كان يهم بالتقام شىء ما فتوقفت شوكته بين الترابيزة واللغد . ساطتها رفيقته بعينين لاسعتين ثم أدارت الوجه المكتنز ليصبح ملكا خالصا لها .

انكمشتْ داخل بلوزتها ورنتْ تجاه الكهل الذى يجلس وحيدا منعزلا وأسبلت جفنيها « ماذا يحدث لو أضفتُ برودته إلى برودة وحدتى ؟» . أرتفعتْ قليلا عن الكرسى وانفرجت شفتاها . كادت تناديه بشىء لكنها نفثتْ فقاعة صغيرة وارتمت على الكرسى .

فشلتْ فى إحصاء دوائر الضوء النحاسى التى تتوزع باتساع المكان

قبالتها، فسحبت بصرها ببطء إلى لهب الشمعة المحبوس داخل الكوب أسفل عينيها. لاحظتْ أنه يرتعش فأمالت رأسها وراحت تداعبه بزفيرها. قالت: « لعل مفارش الضوء تهتز الآن ». تابعتها فوجدتها كلها ثابتة عدا مفرشها الذى خفق فخفقتْ عيناها معه. لمحتْ كرسيا كلاسيكى النقوش نخره السوس وانزوى فى بقعة الظل القريبة، غمغمتْ « لماذا تركوه هكذا ؟ .. إنه يخدش بهاء المنظر ». ثم زَمَّتْ شفتيها وسحبتْ عينيها ولم تعرف هل كان الاحساس الذى خامرها هو القرف أو الخوف، لكنها نفضته بهزة من رأسها ونطقت بازدراء وربما برعب : السوس ».

أفزعها صوتها فتلفتت حولها لترى ما إذا كان أحد قد سمعها. اطمأنْت فعادتْ إلى شمعتها. فردتْ أناملها وابتسمتْ: « أيتها الفراشات الناحلة » وتناوبت تمريرها فوق حافة الكوب الدافىء، وراحت تتابع نفاذ الضوء عبر الجلد والسلاميات المستطيلة وماسة خاتمها الكبير « آخر متروكات العائلة ». اتسعتْ ابتسامتها لمَّا رأت تلك الدوائر الصغيرة المتداخلة من ألوان الطيف تخرج من الماسة « أفضل من مبادلة الكراسى النظرات ». صوبتها تجاه الظل القريب حيث يقبع الكرسى الذى نخره السوس. لم تكشف أضواؤها من مجارى السوس شيئا. ثبتتْ عينيها باتجاه الظل وأذابتْ ابتسامتها

وعادت إلى سلاميات أصابعها، طرقتْ الماسة بحافة الكوب « لو أنصف الجواهرجى لكنت أيتها الماسة من نصيبه ». بسطتْ كفها فوق اللهب « أنهم يتعجلون انهيارى ». وفكرتْ « ميناء الساعة سيكشف لى مكان السوس ». غير أنها عوت فى خفوت ونفختْ فى إصبع ولثمته ثم لمّتْ أصابعها ووزعتها على جانبى الكرسى وراحت تنقر عليه . سمعت زفيرا مكتوما فنظرتْ إلى الكراسى الفارغة المحيطة بها واربدت زاويتا شفتيها. « هذه الكراسى تهزأ بى ».« تضحك منى » . « تهزأ بى وتضحك منى ». ونهضتْ إليها. أبعدتها ثم عادتْ وسمرتْ عينيها على لهب الشمعة. كان ثابتا ومستقيما. أحستْ بشىء خارج شحوب دائرة الضوء الذى يؤطر الترابيزة التى تجلس عليها. خامرها خوف غامض، مدت بصرها، فوجئت بالكراسى الفارغة وقد تراصت جميعها فى مواجهتها، بُنية ، جامدة ، فارغة.

بحثتْ عن رؤوس الرجال والنساء فوجدتها هناك فى البعيد تتقبع العتمة وتتهامس. تلتمع ملعقة أو شوكة. ترتفع فى الظلمة وتنخفض لتعاود الارتفاع، إنهم مشغولون عنها. هى والكراسى والدوائر الشاحبة. « أيتها الشمعة ... إن الكراسى تضحك منى . تعمل رأسها برأسى وتضحك منى . ثم مالت بوجهها وأخفته بين

كفيها وابتسمت « أي هراء هذا ؟ »، ونفثت في كفيها « أي هراء ؟ إنني بخير » ، فتحت شقا بين كفيها ونظرت.

كانت الكراسي أكثر اقترابا وأكثر التصاقا وأكثر مواجهة. أخفت رأسها بذراعيها كلتيهما. دفنتها فيهما « لقد جننت ». لا، « لم تُجنى » « هذه الكراسي تعاملني كما لو كنت كرسيا مثلها. لا، لستِ كرسيا ». ورفعتْ حاجبا ثم الآخر. جعدتْ من أنفها وزمتْ شفتيها. تنفستْ « انظري، إنني لست كرسيا ». واستمرت ، حركت ذراعا ، فآخر. أزاحت شعرها، هزت رأسها كله. رفعته فإذا بلوحة ضخمة على الحائط لكرسي ضئيل تنسكب عليه شرائط من ضوء. شهقت « لا .. » وبترتها لما رأتْ، وهي تهز رأسها باتجاه المدخل، ذلك النحيل مغضن الوجه يقف مغمورا بالضوء المسكوب من مصباح المدخل. هجستْ « أتراه سمع صرختي ؟ ». « ماذا عساه أن يظن في ؟ ». لكنه كان مشغولا بتفحص المكان.

شدتها عدستا نظارته الطبية وعيناه المجهدتان والوجه المعجون بالتجارب. هكذا أحست. من ياقة سترته والكتف التي تراكمت عليه قشور رأسه ذات الصلع الخفيف، وعبر الذراع النحيلة والكم ذي البقع البنية الدكناء هبطت بعينيها إلى جيب السترة حيث برز طرف الصحيفة المعارضة. كانت مطوية بعناية وإن تهدبت من

أعلى. لمحت جزءا من مانشيت يوحى بمعنى ملتهب، وإلى جوار الصحيفة ثبتتْ كفه الملفوفة بالشاش.

هدر داخلها وغامت عيناها وغاصتْ بما خيل إليها أنه رائحة يود ومطهرات فارتعدتْ. نظرتْ إلى أظافرها « لا ، هى روائح المانيكير والأسيتون » وتطامنتْ إلى شمعتها. « هذا الرجل سيحطمنى عدم جلوسه إلىّ ». وفَرَتْ بعينيها إلى الكراسى .. صماء .. بكماء .. خاوية .. أكثر أقترابا .. متراصة .. متزاحمة. فزعتْ، لكنها سمَّرَت عينيها عليها « لعله يستدير وينصرف ». « بالتأكيد أخطأ المكان. لو جلس إلىّ ربما دمرنى ». « لا، لم يخطئه، أنا التى تريده ». لا ، هو الذى يريدنى ». « بل أنا، أنا دعوته » . « دعوته !! ».

وإذا ترفع عينيها الزائغتين رأت عينيه، وقد وقعتا عليها فشحب وجهها وغاصت فى داخلها « إنه الرجل ». همَّتْ بأن تمسك بالشوكة وتضرب بها الكوب المشع وتناديه، إلا أنها لم تقدر. حاولت تحريك ساقيها فلم تستطع. غمغمتْ « أيها الرجل الفاتن »، لكن صوتها لم يخرج. كانت قد تسمرت تجاهه وتفتحتْ له.

عندئذ ظهر الجرسون وتحرك ناحيته. كان مستفزا ومربدا. وقف قبالته عند المدخل وأخذ رأسه يهتز بعنف. بالمثل زادت

تغضنات وجه الرجل وتوهجتْ عيناه فيما اشار الجرسون بذراع تجاه الخارج. لم تكن هناك كراسى باتجاه المدخل. الضوء القوى النافذ والظلال المتراصة. رأت شفتى الرجل تنفرجان وتنقبضان، وسمعت صوتا يأتى ملفوفا بالضوء، حادا، وحازما « أنتم وعالمكم » .. ثم شرع سبابته السليمة وأخذ يحركها باتجاه المكان .. باتجاهها .. حينما استقرت رأس الجرسون فوق عنقه كان الرجل يلوح ببطاقة أخرجها من سترته. هجست « هذه البطاقة ليست غريبة على .. إنها بطاقتى »، وكتمتْ فمها « من أعطاها له ؟ » ، وأغمضتْ عينيها « اهدئى ، ربما كانت لغيرك » وكشفتهما « بل هى بطاقتى .. نعم .. بطاقتى » . « لكنى اعطيتها لرجل آخر .. لم يكن ممسكا بأى صحيفة .. لم يكن جريحا » . « بل هو ... ذات الصلعة الخفيفة ... ذات التغضنات » .. « الآخر كان يأمر وينهى ويوجه عددا كبيرا من الناس » . نعم ، والمظاهرة التى أعلن عنها الراديو كانت فى نفس المكان » . « كان نظيفا » . « وقتها ، ربما كان وقتها نظيفا » . « أيها الجرسون، اطرده » . « لا ... لا تطرده ، دعه يدخل ، هاته » . « بل ابعده ، ارمه ،هناك ... هناك فى الظل ، إلى جوار ذلك الكرسى الذى نخره السوس ، سأناوشه بأضواء ماستى وأحقره » . « لا تناورى، اعترفى بأنك تريدين إمعان النظر فيه » .

« نعم ، لعلى أفعل هذا ، أو أكثر منه ، لعلى أستدعيه ، لربما قمت واتجهتُ إليه » . « تقومين إليه !! » . « هه، لا .. لا » .

أدارتْ وجهها إلى الكراسى « أيتها الكراسى تقدمى، حاصريه ، قفى بينى وبينه، احمنى » . رأتْ الكراسى تميل بمساندها نحوها تصيخ السمع فأشارتْ تجاه المدخل « اهجمى عليه أيتها الكراسى . اهجمى » .

ولم تدر أى شلالات تلك التى أخذت تهدر بداخلها وهى تراهما يتخطيان المدخل والممر ويلتفان حول الكراسى ويتقدمان نحوها. فرح هو أم خوف ؟ ... خشيتْ أن يصّاعد الهدير إلى خارجها فأقفلتْ منافذها، لكنها خافت أن يعبرانها ويعتبرانها مجرد كرسى مهمل مركون إلى ترابيزة مهملة فأعادت فتحها مرة أخرى.

كانا بالفعل يتجهان نحوها فأغلقت عينيها، أغلقتْ عينيها فقط، وظلت متوفزة بأكملها. ها هما يدوران نصف دورة بحذاء نصف الترابيزة. ها هما قدما الجرسون تقفان إلى جوارها. قدما الرجل تقفان على مقربة منها. أكثر قربا من الجرسون، إنها تشم رائحته. رائحة من يتحممون بالعرق، « إيه أيها الجرسون ، انحن ودعنى أفتح عينى، عرفنى به وعرفه بى، كن كيسا وتَقَنَّع بقناع المهنة، عامله بأدب وإلا صفعتك. اسحب كرسيا له ودعنا لنتضام،

سأتـهالك بين يديه وأتحطم، أيها الجـرسون، مـاذا تفعل ؟ ». كـان الجرسون قد تحرك خطوتين وأصبح خلفها. وبسلاسة متناهية مد ذراعيه تحت إبطيها وسحبها إلى الخلف قليلا ثم عاد ليصبح إلى جوارها. فتحت عينيها لترى ماذا يفعل الجرسون، فشاهدته يشير بنفاد صبر للرجل الذى تقدم خطوة وجلس عليها مشدود الظهر، شهقت وحاولت أن ترفع ذراعيها لتحضنه ، إلا أنها لم تستطع فانصرفت إلى سماع طقطقات عظامها.

المؤتمر البترولى

أعلم أن شفاهكم وحناجركم وأحجبتكم الحاجزة ستتسابق لترميني بالهلوسة والهستيريا. ستقولون هى الشيزوفيرانيا ولربما الشيزوتينيا أو البارانويا ، أو المالنخوليا .. ستغمغمون لأنفسكم، وأنتم تمدون أياديكم وأصابعكم وأدواتكم لفحص قاع العين واللوزتين واللهاة، وتقولون: « كيف شارك فى مؤتمر كهذا ؟ »، « كيف سمحوا له ؟ »، وستأخذون فى الخبط على ظهرى وصدرى وبطنى، وبمطارقكم ستضربون على ركبتى وستحملقون فىّ ، وفى اهتزازات أوراقكم الخفيفة المفرودة فوق أصابعى. قد تبتسمون أو تكشرون، لكنكم سترمونني على الأرائك المستطيلة وتقولون: « تكلم »، « احك » ، « قل » ، « بح »، ومن وراء المرايا الشفافة يقف طلابكم جاحظى الأعين، متوفزين، ولربما متدافعى المناكب. كل منهم يمنى نفسه بالحصول، من ملاحظته لحالتى، على أعلى التقديرات أو ـ على الأقل ـ باتقاء شرور قساوتكم فى الامتحان.

لا ... لاتعاملونى بهذا اللين الزائد ، فعندما تستديرون ألمح نواجذكم المعضوض عليها بنفاد صبر وأكاد أحس باحتراق الاكسجين فى دمائكم، ومن عيونكم وأنوفكم أكاد أرى لهب .

الاحتراق. وهذا الدبيب ليس دبيب أمشاط وكعوب أقدامكم، يأمرها العصب فتدب. إنها اهتزازات المراجل الفوارة من أعينكم، وعبر أكفكم المتوترة، وأصابعكم التى لا تدرى ماذا عساه أن يحدث لو فاض الكيل. ربما اقتلعتمونى من أمامكم صائحين: « غر »، « لا ترنا وجهك بعد الآن ». إنى أشم رائحة شياط أقنعة الرزانة، وأرى زهو ألوانها وقد أكلته حرارة أجوافكم.

لا تهدأوا، لا أريدكم أن تهدأوا. مثلى. كونوا مثلى. لكنكم لستم مثلى. على الأقل هذه المرة. فما حدث لى لم يحدث لأى منكم. كنتُ أريده أن يحدث. أتمناه. اعتصر نفسى وأقول ياليت. كم من مرة ضربتُ رأسى فى الحائط. تلويتُ. عويتُ. بكيتُ. عضضتُ فى ملاءة السرير، الستائر، أكمامى. ارتميتُ فى فناطيس الجاز، وهددتُ بإحراق نفسى إن لم يخرج. لكنى لم أتخيل للحظة أن ما حدث يمكن أن يحدث وبالطريقة التى حدث بها.

فمثلما ينبثق الماء المغلى من القدور اللاهبة، اندفعتْ من منافذ وجهى خيوط الدخان، مستقيمة، حادة، قوية ومرئية. لها صوت الرصاص وصفير القنابل. سرعان ما تعرجت وانبعجت وتجمعت على سطح البلاط المصقول فوق رول التواليت. مفزوعاً، لا، فرح،

بل فرحا ومفزوعاً، نعم فرحا ومفزوعاً رحتُ أرقب انبعاجات الكتلة الدخانية. وإذا بوجهه يتشكل ويتكامل. فهذه عين ، وهذه أنف .. شفة .. حتى الندبة بين الذقن والرقبة التمعت فى الضوء . كلما سال الدخان ظهر شىء. فهذه كتف. وهذا ثدى. أدرتُ الشطاف ولملمتُ سروالى تحسبا، فيما أخذ الدخان يتساقط عن صدره وخصره. قبيل أن يكتمل نهضتُ ، شددتُ السوستة ودسستُ القميص داخل البنطلون وحاولتُ الخروج فإذا به يسد الباب. وفى اللحظة التى تمكنت فيها من الإفلات منه، التصقتْ بصقته الملتهبة بوجهى. لكنى - وهذا هو المفرح - كنتُ فى الخارج.

استجمعتُ شتات نفسى وجريتُ مهرولا عبر الممرات والقاعات مغادرا المكان، تاركا فى القاعة الكبرى أوراقى ومفاتيح السيارة التى وضعوها تحت إمرتى، والكلمة التى كنتُ سألقيها كما رتبوا لذلك فى جدول أعمال المؤتمر. تجاوزتُ سيارتى المغلقة وإلى أول تاكسى أشرت، وإلى الفندق قصدتُ.

أعلم أنكم ستقولون إنكم مطمئنون إلى أننى سأجده قد سبقنى، وأنكم تعرفون ذلك من حكاياتى السابقة، وقت أن دفعونا دفعا

لمصافحة من قالوا إنهم أبناء عمومتنا. لكن الأمر ليس هكذا تماما. ليس هكذا أبدا. صحيح أننى وجدته بين المصعد والسلم، لكنه كان شديد الغضب. ما أن رآنى حتى أمسكنى من ياقة قميصى وثبت عينيه فى عينى وزام. بالرغم من هلعى ونحولى ومسالمتى التى اشتهرت بها وتعرفونها، وبالرغم من أنه قوى ومفتول وصارم الملامح، إلا أننى أفلحتُ للمرة الثانية فى دفعه عنى وكعبلته ليسقط متدحرجا فوق درجات السلم. من فورى فتحتُ الباب وأقفلته من ورائى بالمفتاح وبالمزاليج وبكل ما وصلت إليه يداى، حتى السجادة سحبتها وحشرتها فى عقب الباب، وعلى أبعد زاوية فى الفراش ارتميتُ متحفزا، مرتعبا ، مرتاحا.

نظرتُ إلى المتراس الذى صنعته، وإلى مسودة كلمتى التى لم ألقها، ودفنتُ انفعالاتى فى التليفزيون. عدم إلقاء الكلمة سيسبب لى حرجا، لكن المهم أنى أخرجته. قد يكون متربصا بى عند السلم أو أمام المصعد، وقد يبيتُ مستندا إلى الباب، لكنى أخرجته.

التقطت من بين المجلات البترولية والكتيبات التى وزعوها علينا فى المطار، صحيفة الصباح، عناوينها وموضوعاتها هى نفس العناوين والموضوعات التى تركتها هناك ، تحت صورة

المبنى الذى يعقد فيه المؤتمر قرأت اسمى ضمن الأسماء التى سينال أصحابها شرف التحدث فى الجلسة الافتتاحية. وفيما أحدق مغتاظا فى صورتى التى شوهتها أحبار المطبعة، إذا بالمفتاح ينقذف بقوة، ومن خلفه خيط الدخان المندفع. ألقيتُ بالصحيفة واحتميتُ بالملاءة، إلا أننى رأيته ينتصب أمامى من جديد ، قويا، مفتولا ، وصارما.

زمجر. حرتُ ماذا أفعل ، وأنتم تعرفون كيف يحار المرء فى مثل هذه المواقف، لدرجة أن أظافرى جرحت كفى. وقفت ملتصقا بالحائط، محتميا بالملاءة ومحملقا فيه وفى الشاشة التى انطبع عليها عقال الأمير ونياشين الرفيق الركن. خمنتُ أنه ليس أمامى إلا باب المرحاض، غير أنه مد ذراعاً باتجاهه فتراجعتُ لأرى على الشاشة حافظة أوراقى ومفاتيح السيارة والكرسى الشاغر على المنصة ووجه المذيع.

أفقت إلى الشُبَّاك المقفل ففتحته لتواجهنى شعلة الغاز المتوهجة أعلى معمل التكرير الذى بدا هيكلا حديديا ساكنا فى البعيد. وثبتُ إلى حافته مهددا بإلقاء نفسى . قال ، نعم قال، نطق وقال: « أنت أجبن من أن تفعلها ». وإذ أنظر إلى الأسفل لمحتُ بين زحام

العربات شاحنة مكتظة بالخراف، فارتجفتُ وصرختُ به: « إذن ابعد »، وبكيتُ : « ابعد ».

لدهشتي رأيته يتلاشى. وفي ذات اللحظة اقتحم الباب عدد من لابسي الغترات والعباءات وأشاروا ناحيتي صائحين: « ها هو ». واقتادوني إلى مقر المؤتمر.

أمام باب القاعة استقبلني الرئيس: « اعتذر عما بدر منك ». ابتهجتُ، ومجاورا الرئيس خضتُ طريقي إلى المنصة محفوفا بثلة من الأعضاء. أمسكتُ بالميكروفون وقلت: « أعتذر ، فقد كان الذهاب إلى المرحاض أمرا ضروريا ... » ولا أعرف أي خطأ ارتكبت، فقد حملوني قبل أن أكمل ورموني على مقعد في غرفة داخلية. « إهاناتك لأعضاء المؤتمر لا تغتفر ». « كلماتك ترمي إلى أمور ذات معان ». « سنشكل بشأنك لجنة ». « ربما كان هذا آخر عهدك بالمؤتمرات. سنبلغ جميع المنظمات المعنية، أبحاثك ستهدر، لا نشر ، لا بدلات ».

ابتسم السفير: « أنت مطالب بتفسير لما فعلت»، وتراجع في مقعده: « تنسحب من الجلسة الافتتاحية ، وتترك كلمة تغضب كل الأطراف ».. هتفتُ : « أنا؟! » . قال: « أنتَ » صحتُ: « لا يمكن »

فتح درجا وأخرج صورة لكلمتى وسأل: « خط من هذا ؟ » نظرتُ. بالفعل هو خطى. قال: « فسر لى إذن معنى كلامك عن سلسلة الصراعات بين المنتجين والمحتكرين، وضرورة ممارسة الحق الطبيعى فى السيطرة، وحتمية إعادة توزيع الثروة واستغلال الفوائض فى خطط التنمية ». خبطتُ رأسى : « آه ... عرفته ... إنه هو ». « هو ؟ أى هو ». نظرت للسفير موهوما ولم انطق.

قال : « ستعود فى أول طائرة .. إلى غرفتك بالفندق سيصاحبك أحد موظفى السفارة .. لا أحاديث صحفية ... لا تصوير ... لا مشتروات ».

دخل أحد موظفى السفارة وقدم وفدا. لكم أن تتصوروا مدى هلعى، فتحت كل عقال غترة، وداخل كل غترة وجه، ولمعظم الوجوه لحى مدببة وشوارب محفوفة، بعض الوجوه تعلوها عمامات، وبعض الخصور محاطة بأحزمة من قماش، وفى كل حزام دس جراب منقوش، وداخل كل جراب خنجر، ولكل خنجر مقبض من العاج المرصع بالذهب والياقوت. قالوا: « معالى السفير، هذا ما هو راجع لدياره ... هذا من حقنا ». بهتُ، (فهذا) هو أنا.

استشعر السفير الحرج فتدخل: « أرجو أن تطمئنوا إلى أن ما حدث سيكون موضوع اهتمام حكومتنا و ... » ولم يكمل إذا أقتحم الباب، وأسقط عدد من موظفى السفارة لتندفع إلى الداخل ثلة أخرى من لابسى الغترات والعمائم وأصحاب اللحى المدببة والخناجر المعقوفة، أشاروا ناحيتى « ها هو » فانتزعت علم دولتى المثبت بمكتب السفير، لا أعرف لماذا، ولوحت به باتجاههم. فطنوا إلى وجود السفير والثلة الأولى فتوقفوا . قال أحدهم : « معالى السفير المكرم، هذا فعل بنا الأفاعيل » . وتقدموا باتجاهى فلذت بظهر السفير . قال آخر: « معاليكم لا يرضيه أن يفعل هذا ما فعل » . لن تصدقوا، حتماً لن تصدقوا، كما لم اصدق فى البداية هول الحمم التى تناوبت شفاههم قذفها وهم يشيرون باتجاهى: « أطاح بالميكرفونات» ، « نزع شعار المؤتمر » . « مزق أوراق العمل » . رسمنا على هيئة الهنود الحمر » . « فتح سرواله وبال علينا » . « بعد أن شد السوستة أعطانا ظهره وضرط فى وجوهنا » . هتف السفير : « لكنه كان هنا معنا »، وفيما ينظر إلى أفراد الثلة الأولى ليحصل منهم على تأكيد بصحة ما يقول، لمحته . نعم . بكامل هيئته لمحته . هناك، عند حافة النافذة، متوهجاً ومنتشيا . صحت

مشيرا باتجاهه : « ها هو الفاعل ». نظروا فلمحوه قبل أن يتحول إلى غيمة ويختفى. بهتت الثلثان وأسقط فى يدى السفير ما أن رفع أحدهم إصبعا وجلا وأشار ناحيتى: « هذا والله مس » ، حتى تصايحوا وأنا أزداد انكماشا خلف السفير : «نعم ، مس والله مس ». « سحر » . « شر مستطير » . واتجهوا ناحيتى، كلما اقتربوا خطوة تحركتُ متلهف خلف السفير : « اخوك؟ » . « قرينك » « شيطانك ؟. » [illegible] ناده » . « هاته » . « أنت سهلت فراره » . [illegible] السفير المكرم ، لن نبرح هذا [illegible]

[illegible] فى عين [illegible] العلم الصغير الذى [illegible] الأخرى وحذانى به فتكتلوا وواجهونا [illegible] تطلبونه أمر غير مسبوق » . استل بعضهم [illegible] معنيكم، حتى [illegible] خذه » . تمنيتُ أن يظهر فلعله [illegible] سأتصل بحكومة بلادى » . وسحبنى معه [illegible] خلف المكتب . رفع السماعة وتكلم . بعدها ترك يدى وجلس [illegible]

وإذ يقتادوننى - مستسلما - إلى الخارج وسط صفين من موظفى

السفارة ورجال أمنها المبهوتين ، أدرتُ رأسى للخلف فرأيت السفير وقد وسد رأسه بلور المكتب عاقدا كفيه فوق رأسه. اكتشفتُ أننى مازلت أُمسك بعلم البلاد فدسسته فى جيب أحد الموظفين وخرجتُ محفوفا بهم.

ستقولون هاهو ذا بدأ تهويل الأمور. لا ألومكم إن ظننتم هذا فىَّ. أنا نفسى لم أصدق ، فأى شىء فىّ يجعلنى محط أنظار كل هؤلاء؟ ولماذا يهتمون بى ؟ فها أنذا أخرج محطما، بائسا، قانطا، ومحفوفا بهذا الرهط قاسى الملامح. لكنهم فاجأونى، فمن بين عربات (الونيت) و (الكاديلاك) وأضوائها الحمراء والزرقاء ، ومن خلال أجساد وهراوات ورشاشات الجنود ، احتشدتْ جموعهم الغفيرة: سود وسمر وبيض وصفر، لابسو عمائم وغترات وبرانيط وطواقى وحاسرون، ذوو لحى وشوارب وجرد، داخل عباءات وجلابيب وسراويل وحرامل، يشيرون باتجاهى ويتصايحون، فيما لُوى ذراعاى وشُد شعرى من خلف حتى التصقت أم رأسى بقفاى. السماء فوقى بيضاء وخالية ، والصوت الميكرفونى يهدد ويتوعد كل من يجرؤ على إهانة البلاد وبترول البلاد.

وإذ يدفسوننى فى المقعد الخلفى بواحدة من عربات (الكاديلاك) طار السائق من الباب وحلَّ محله آخر انطلق بها فسقط مرافقىّ على الأسفلت. عرفته. صرخ فيما راح ينهب الاسفلت نهبا وأرتال (الكاديلاك) و (الونيت) تحاول اللحاق بنا: « اقفل بابك » . صرخت بدورى : « انزلنى » . هتف : « اقفز إلى جوارى » . لكنى انكمشت فى مقعدى، وفيما يزمجر ساخطا: « اقفز » . انبثق من الرمال قطار من الأبل المربوطة إلى بعضها وقطع من الأسفلت . زعقت الفرملة، ولم يحل زعيقها ولا انكماشى وفزعى من ملاحظة تأرجح أجهزة التليفزيون والتكييف على بطون الإبل . تراجعت السيارة إلى الخلف ثم انحدرت فى أول طريق أعادنا إلى العاصمة والمطاردون من خلفنا.

ها هى ذى رطاناتكم تعلو وتتقاطع. تلعبون كعادتكم لعبة [illegible]عموس والمهابة. قد تكونون قططا، لكنى لست فأركم. أعلم أنكم غمغمون وتقولون إن هذه محض اختلاقات لا يقدر عليها سوى ذهن مريض. لكنها الحقيقة. فماذا يُتوقع ممن يجد نفسه مطروحا بين المطارقة والسندان ؟ عند أول منحنى رأيتها فرصة فألقيتُ بنفسـ[illegible] الطريق. [illegible]ـهضتُ مهرولا بين العمائر الضخمة

متحاشيا الزحام وعناوين الصحف التى تتحدث عن الرفيق الذى أهان عقال الأمير.

فكرتُ أنْ ليس كالصحراء متسع للهروب، وليس أفضل منها مكان للتضليل، لكننى خشيتُ على نفسي من التيه فتوغلتُ بين العمائر ممنيا النفس بالنجاة، وإن هربتُ منهم إليهم . تمنيتُ لو تخفيتُ فى واحد من أرديه المنقبات المنزويات فى العربات المارقة من أمامى. وانفجرت سارينات (الكاديلاك) من آخر الطريق فعاودتُ الهرولة . عند خروجى من الطريق فوجئت بفسقية على هيئة جرار متلاصقة تسيل منها المياه. دونما تردد قفزتُ إلى واحدة منها وانكمشتُ فى داخلها. وإذ تمر السارينات وتمضى بعيدا ، فكرتُ أنه لا يفعل هذا سوى الأرانب وفئران الجحور ، لكننى استرحتُ لأن عنق الجرة التى اختبأت فيها مائل لأعلى ، وأراحتنى رطوبة الماء ومنه شربت.

تقولون إنى نجحت فى الإفلات منهم ، لكنى لم أفلح فى الإفلات منه ؟ .. الخطأ خطأى، فليتنى ما رفعتُ رأسى ونظرتُ، إذ ما إن فعلت هذا حتى اندلقتُ فى حوض الفسقية، ومنها إلى البلاطات الملونة المحيطة به . رُفعتُ ، ومنهكا مبلولا ومرتجفا

ألصقت بعامود نور، وإذ تساقط أضواء الصوديم على وجهه المتوقد وعضلاته المشدودة فتحيله إلى كائن من نحاس. غمغم من بين أضراسه « يا ناقص العقل » . وأحسستُ بنسغ التحول إذ يسرى فيه، ورأيتُ أطرافه إذ تتحول إلى دخان فاستجمعتُ كل قواى ولكمته فى وجهه وجريت ، إلا أنه عند أول منعطف عرقلنى فسقطتُ ورأيتُ ذراعيه وساقيه يعودان للاكتمال فزحفتُ بظهرى مبتعدا عنه ثم نهضتُ، إلا أنه حسى فى وجهى التراب فانثنيت ليعتصرنى بذراع ويدفعنى بالأخرى إلى الجدار وينهمك فى لكمى. بامتداد ذراعى حاولتُ ابعاده، إلا أنه دفع ذقنى إلى الوراء وكادتْ أصابعه أن تفقأ عينى. عاودتُ لكمه فثبتنى إلى الجدار بمنكبيه، وإذ يُمسك بفتحتى أنفى ويوسعهما، أحسستُ بالخور يسرى فى بدنى ، ورأيته بأم عينى إذ يتحول إلى غاز ويتسرب إلى داخلى ساخنا وثقيلا ، فصرختُ وعويتُ وزأرتُ وانقذفتُ إلى الأسفلت ، وطفقتُ أجرى وأتخبط، أسقط وأقوم وأتدحرج ، أزحف وأنهض وأترنح، مطوحا ذراعى فى الهواء وقابضا بهما على صدرى وبطنى، أضرب بهما جنبى وجبهتى. تلقفنى عامود نور فاحتضنته ليثبتنى فيما رحتُ أتقيأ.

أحسستُ بهم يتحلقوننى : « هذا هو ..إنه هو » . حاولتُ الهرب . لكنهم أمسكوا بى وقيدونى إلى العامود المقوس وقالوا : « دلنا عليه » .. « أين اختفى ؟ » . نعرف أنه المسئول » . « أنت مجرد شريك خانع » . « كيف تسمح له بسب البلاد وبترولها ؟ » قلت لهم : « لقد ضربنى .. حسى فى وجهى التراب وضربنى » . رفعونى من قدمى وقالوا : « قل وإلا أخصيناك » .

أحسستنى أطرافه إذ تزحف داخل أنفى ما تزال فقلتُ فى نفسى: « لو نفثتُ فلربما أخرجته من داخلى فيقبضون عليه واستريح » . غير أنى لم أستطع ، وخشيتُ على نفسى مغبة القتل لو افتضح أمرى وعرفوا مكانه . قالوا : « أرجحوه ليعرف بأسنا فيقول ويعترف » . ورأيت الأشياء تدنو منى وتبتعد ، وشعرتُ بساقىّ تتفسخان . صرختُ فقالوا : « ها أنتذا تعرف أننا ذوو بأس شديد فاعترف » . قلتُ : « لقد ضربنى » . قالوا : « ونحن أيضا نضربك » . وانهالوا على رأسى صفعا وركلا . أحسستُ بالدماء تسيل من رأسى وأسنانى وأنفى ، ورأيتُ قطراتها إذ تساقط فوق عينى حمراء ضخمة ، واصطبغتْ المرئيات بالحمرة بعد اعتام . شدونى إلى الخلف ثم دفعونى إلى الأمام لأصطدم بلوحة نيون

ضخمة تحطمت فوق وجهى وصدرى وبطنى ، فصرختُ به : « اخرج وإلا قتلونى ».

قالوا : « هو فى داخلك إذن ؟ » . هتفت : « نعم ». فأخرجوا رشاشاتهم وبرقت سيوفهم وخناجرهم وانزلونى وتصايحوا : « سدوا منافذ سرواله لئلا يخرج » . « اربطوا أساور قميصه » . « اقفلوا عينه وأذنيه ومنخاره ». « كمموا فمه » . « أوقفوا النزيف لئلا يتسرب مع دمه ». وأحسستُ بركلاتهم فى ضلوعى وفوق السرة والمفاصل ، ولما قالوا : « فى محبسه سنحيله إلى مصفاة ». وجدتنى انتفض وأتلوى وأحسست بالانبعاجات تكاد تمزق ما علىّ . وإذ يصوبون ويهمون بالاطلاق ، أو هكذا أحسست اذا به يندفع متدوما فيطيرهم ويقذف بهم أشلاء تناثرت فى البعيد.

وحينما هدأت نفثات البخر، وكفَّتْ عن الانبثاق، رأيته أمامى محاطا بنفاياتهم وأسلحتهم التى تركوها . مد يده وقال : « انهض، لقد هزمناهم » . لكنى كنتُ منهكا ومثخنا ، فلم أستطع النهوض ، ولم أحاول.

ثبت بالقصص المنشورة:

مـــعــهـــا : الثقافة الجديدة ، القاهرة ، العدد ٤٤ ، مايو ١٩٩٢ .

الجمهورية ، القاهرة ، العدد ١٤٠٣١ ، ٢٨ مايو ١٩٩٢ .

إمـــرأة ورجل : المساء، القاهرة ، العدد ١٣٠٩٥ ، ٥ مارس ١٩٩٣ .

نـافـــــذة : الثقافة الجديدة ، القاهرة ، العدد ٤٠ ، يناير ١٩٩٢ .

صوت الكويت ، لندن ، ٤ أغسطس ١٩٩٢ .

حريتى ، القاهرة ، العدد ١٦٢ ، ٤ مارس ١٩٩٣ .

الممثل العظيم : س.ج ،: إبداع ، القاهرة ، العدد السابع ، يوليو ١٩٩٢ .

شاعر مجنون : رصيف ٨١ ، بيروت ، ١٩٨١ .

حكاية رجل عصبى : الأهالى ، القاهرة ، العدد ٦٢١ ، ١٥ يونيه ١٩٩٤ .

فى مدينة الظلمة المميتة : الثقافة ، بغداد ، العدد ٦ ، السنة الخامسة ، حزيران ١٩٧٥ .

بورسعيد الثقافية ، بورسعيد ، العدد ٣ ، ١٩٨٣ .

زعقة فى زكيبة : أدب ونقد ، القاهرة ، العدد ٨٤ ، أغسطس ١٩٩٢ .

الرمــــاديـون : الثقافة الجديدة ، القاهرة ، العدد ١٥ ، ١٦ أبريل ١٩٨٨ .

الرجل ذو الصحيفة المطوية : الثقافة الجديدة ، القاهرة ، العدد ٣٠ ، مارس ١٩٩١ .

ابداعات بورسعيدية ، العدد ٢ ، مايو ١٩٩١ .

قالوا عن المؤلف :

قاسم عليوة هو أحد الأسماء التى تراهن « الزهور » على مستقبلها الأدبى .

أبو المعاطى أبو النجا
(الزهور ـ الهلال) أغسطس ١٩٧٤

تسرى فى أعمال قاسم مسعد عليوة انسانية عذبة، فتلتقى الأيدى وسط القصف وتتردد أنفاس الاحتضار ، ويقدم كل القليل الذى يملكه للآخرين .

فاروق عبد القادر (الطليعة) أغسطس ١٩٧٤

قاسم عليوة واحد من جيل ما وراء الشمس ، يكتب ويبدع وهو قابض على الجمر، لأنه يؤمن أن الكلمة إبداع ، وحركة ، وموقف ، ودورة كاملة للعشق والشهادة .

محمد يوسف (مرآة الأمة ـ الكويت) ٢ يوليو ١٩٨٠

القصص ـ عند قاسم مسعد عليوة ـ تنتهى إلى عالم البحر ، حيث مدينة بورسعيد ، بما لها من تاريخ عريق يجعلها رمزاً لتجسدات الانسان المصرى فى النضال والوطنية .. والبحر وعوالمه يشكل الركيزة الأساسية التى يستند إليها إبداعه .

(الشرق الأوسط اللندنية) ٢٠ أغسطس ١٩٨٣

قاسم مسعد عليوة صاحب تجربة مميزة فى القصة حيث يتناول الانسان والقهر الحسمى والفكرى وما يواجه انسان العصر الواعى من ضغوط مختلفة تؤدى فى النهاية إلى السجون لكى تتجسد لنا معاناته وأزماته وعذاباته .

أحمد عبد الرازق أبو العلا
(الطليعة الأدبية ـ بغداد) تشرين الأول ١٩٨٤

قاسم مسعد عليوة من جيل اختار الدخول من الباب الضيق « باب الصدق والحقائق المريرة والانتماء للوطن » .. وهو كاتب موهوب يتجاوز قصص الدعوة والاقناع والتحريض،ويخطو نحو صياغة فنية لتجاربه القصصية فى أشكال تتسم بالعمق والتكامل .

محمود عبد الوهاب (الأهالى) ٢٦ يونيو ١٩٨٥

يقدم قاسم مسعد عليوة نماذج موفقة .. ويمتلك أدوات طيبة لصياغة الأقصوصة .
د. عبد المنعم تليمة (تبات ونبات) ١٩٨٨

الحكايات - عند قاسم مسعد عليوة - قصيرة جداً ، لكنها مضفورة بعناية وتعرف هدفها كطلقة مدفع ، إنها تستخدم الطبيعة ، وترسم الجو ، وتستعين بوسائل الإيحاء والتشويق والجمل القصيرة ذات الإيقاع السريع . يقول المقطوعة ويمضى ، لكنها تسكن داخل القلب .
د. عبد الحميد ابراهيم (صوت البرية) ١٩٨٨

يأخذنا - قاسم مسعد عليوة - من أيدينا إلى الساحل ، حيث يعطى البحر خيراته .. الطيور القلقة ، والصخور المبللة ، والحبيبة التى تسقط فى نهاية الرحلة المتعبة على رمل الشاطىء ناثرة الرمل والملح والأصداف ويتحول ايقاع النداء الصامت إلى أغنية وحيدة يدمدم بها الكاتب « أيها البحر .. أيها البحر » .
(الأهالى) ٧ يونيو ١٩٨٩

يذكرنى قاسم مسعد عليوة بالعملاق ارنست هيمنجواى .
صالح ابراهيم (الجمهورية) ٥ يوليو ١٩٨٩

الأديب لبورسعيدى قاسم مسعد عليوة أطلّ علينا فى أوائل السبعينيات كاتباً قصصياً متميزاً له رؤيته وموقفه وخصوصيته، وكان بشارة موثقة فى فن القصة القصيرة .
عبد العال الحمامصى (أكتوبر) ٢٣ يوليو ١٩٨٩

الحب هو المدخل الحقيقى للفن ، فأنت لا تستطيع أن تبدع دون أن تحب . هكذا تؤكد قصص الزميل قاسم مسعد عليوة . أحب بورسعيد والبحر وناضل مع ناسها وعاش على شاطىء بحرها يدافع عن رماله ضد الغزاة القدامى والجدد .
د. رفعت السعيد (الأهالى) ٢٠ أغسطس ١٩٨٩

مثل طائر النورس حين ينقض على صفحة المياه صوب هدف لا يخطئه ويبدو غير مرئى بالنسبة للمشاهد العادى ، يلتقط قاسم مسعد عليوة برؤية ثاقبة جزئيات الواقع التى تبدو مألوفة ومعتادة فيغزلها بشاعرية ويكشف فيها عن أعماق وأبعاد جديدة . .
سهام بيومى (الجمهورية) ٢٨ سبتمبر ١٩٨٩

انظر كيف دلف قاسم مسعد عليوة إلى نقد المجتمع والمسئولين من خلال رسمه لشخصية الانسان المحب للأزقة المظلمة والعمائر الدكناء واللون الرمادى. إننا إذن أمام ، واقعية ايحائية ، توحى بالشيء ولا تعنيه، تنم عنه ولا تحدده .

د. حامد أبو أحمد (الثقافة الجديدة) فبراير ١٩٩٠

نمط قاسم مسعد عليوةفى الكتابة يطمح إلى الحداثة لا إلى التجديد فحسب. .

د. غالى شكرى (الثقافة الجديدة) فبراير ١٩٩٠

على مشارف الشعر وبين حدود النثر يتشكل العالم القصصى للأديب المبدع قاسم مسعد عليوة .. إنه دائما ما يحاول من خلال لقطاته، السريعة المركزة ، الكشف عن أوجه التناقضات العميقة التى تزيف حقيقة الأشياء.

محمد كشيك (الثقافة الجديدة) مارس ١٩٩٠

قاسم مسعد عليوةلا يقدم لنا فناً من فنون الأقصوصة فحسب ، بل إنه يحاول جاهداً أن يجسد حالات نفسية خاصة بشخوصه بكل ما فيها من تناقضات داخلية ، وبكل ما فيها من تناقض مع الواقع المعاش.

محسن الخياط (الجمهورية) ١٥ مارس ١٩٩٠

توجد أربعة محاور نستطيع تلمسها فى أقاصيص قاسم عليوة هى : التشيؤ والحاجات المادية والحصار والسقوط ، ثم التوق إلى الخلاص الانسانى.

مصطفى كامل سعد (الثقافة الجديدة) أكتوبر ١٩٩٣

، قاسم مسعد عليوة ، مبدع مقتدر حساس .

محمد محمود عبد الرازق

(أبحاث المؤتمر الأول لأدباء القناة وسيناء) يونيو ١٩٩٥

جنحت لغة ، قاسم مسعد عليوة ، إلى الشاعرية مستخدماً مفردات النوارس ، البحر ، التحليق ، الأجنحة الخفاقة ، منهياً قصصه بالمزج بين الواقع والخيال .. ومجموعاته أشبه بعود ريحان طرى وسط جهامة الواقع الثقافى .

حسين عبد العليم (الأحرار) ٤ يوليو ١٩٩٥

اسمه قاسم مسعد عليوة .. يتميز بأن كتابته ذات دفء انسانى طبيعى غير مفتعل . وهو - انسانياً - يليق بدوره كتابة أو فعلاً . وقد ألقت عليه بورسعيد - مدينته - بما يعتمل فيها من أثر الاحتكاك التاريخى المتوالى بعجلة الحرب.

محمد مستجاب (أخبار الأدب) ١٠ ديسمبر ١٩٩٥

تؤكد مجموعته (غير المألوف) على أن فكرة مركزية الكتابة يمكن اختراقها بالعمل الجيد.

عبد العزيز موافى (الثقافة الجديدة) يناير ١٩٩٦

أما قاسم مسعد عليوة فهو كعادته لم يترك لنا فرصة الانبهار فقط ، إنما جذبنا نحو بحيرته ليقدم لنا خبرة الانسان فى كل مكان وأيضاً قدرته على الأحتواء . احتواء كل الأشياء فى لحظة واحدة . وهى قدرة فنية لا يملكها الكثيرون غيره.

فتحى سلامة (الأهرام) ٢ يونيو ١٩٩٦

فليكن قاسم وسيلتنا لكى ندعو الناس إلى محبة الأدب، ورهافة القراءة لا رفاهيتها حينئذ نكتشف روعة الفن .

د. مجدى توفيق (الرافعى) ديسمبر ١٩٩٦

فى استطلاع عام حول أهم أحداث عام ١٩٩٦ اختارت عينة عشوائية من شعب بورسعيد كلاً من الآديب قاسم مسعد عليوة ، والأديبة سكينة فؤاد باعتبارهما أهم شخصيتين أدبيتين على مستوى الدولة.

(الجمهورية) ٢٦ ديسمبر ١٩٩٦

السمة التى تلف أعمال قاسم مسعد عليوة هى أنه يلجأ إلى كل ما يضيف لعمله ويثريه : الطبيعة ، التقنيات الحديثة ، الجمل السريعة المكثفة ، التعبيرات الموحية التى تترك للقارىء استكناه ما تحمله من دلالات.

محمد جبريل

(أبحاث المؤتمر الثانى لأدباء القناة وسيناء) مايو ١٩٩٧

هكذا يضعنا الأديب الفنان قاسم « فى الممر » الذى يشبه دورة الحياة ، هكذا نحن فى مواجهة أنفسنا وبدهيات حياتنا التى يضفى عليها - حتى فى أعقد الأحوال وأسوأها - مزيجاً من سحر الفن ودفء المشاعر.

(الأهرام المسائى) ٣١ مايو ١٩٩٨

لدى قاسم مسعد عليوة لا تعرف القصة أساليب الحكى التقليدى، فلا مقدمة ولا ذروة ولا نهاية .. إنه يدخل مباشرة إلى قصته . قد يفجر طاقات الحدث أو الموقف الشعرية، وقد يصل بنا إلى عالم صوفى راق، وقد يلجأ إلى السخرية ، لكنه لا ينسى الفن ، وخبرات البحر لديه عالية ومكثفة ومغايرة لما ألفناه .

عزازى على عزازى

(الأهوام المسائى) ٢٧ يوليو ١٩٩٨

الإبداع القصصى لقاسم مسعد عليوة مازال يواصل تدفقه ، معبراً عن قضايانا المصرية ومصوراً هموم الناس والوطن وحلم البسطاء .

(المساء) ٣ أغسطس ١٩٩٨

يمسك - قاسم مسعد عليوة - بريشة الخيال ليرسم صوراً للكائنات التى تتبادل الشكل وتتجول فى أشكال العالم غير عابئة بالمنطق الواقعى ، فالخيال حر ، يدفع كل شىء ليجسد الرؤيا الفنية . إن هذا « التحول الفانتازى » يدخلنا دون أن ندرى إلى وحدة الكون.

مُفرح كريم (الجريدة) ٢٦ نوفمبر ١٩٩٨

على وفرتها - تعدد السلاسل القصصية والروائية - فإن الأعمال الصادرة هذا العام - ١٩٩٨ - لم تتمخض عن أعمال لافتة بإستثناء مجموعة (خبرات أنثوية) لقاسم مسعد عليوة الصادرة عن مركز الحضارة العربية بتقصيها المتأنى المرهف فى الملامح الدقيقة للعالم الأنثوى.

تقرير وكالة الشرق الأوسط
عن أهم الحداث الثقافية لعام ١٩٩٨
٣١ ديسمبر ١٩٩٨

المحتويات

للمؤلف:

١- أنشودتان للحرب مسرحيتان ١٩٧٢
٢- الضحك قصص قصيرة ١٩٨١
٣- تنويعات بحرية قصص قصيرة ١٩٨٢
٤- صخرة التأمل قصص قصيرة ١٩٨٩
٥- حدود الاستطاعة قصص قصيرة ١٩٨٩
٦- غير المألوف قصص قصيرة ١٩٩٥ ، طبعة أولى ،
٧- ٥٠٠ متر مسرحية ١٩٩٧
٨- خبرات أنثوية قصص قصيرة ١٩٩٨
٩- لا تبحثوا عن عنوان .. قصص قصيرة ١٩٩٩
إنها الحرب ... إنها الحرب
١٠- وتر مشدود قصص قصيرة ١٩٩٩

تحت الطبع:

١- الديدامونى مسرحية
٢- حكايات عن البحر والولد الفقير قصص قصيرة

شكر واجب

يشكر المؤلف للصديق الكبير أحمد أبو النور

إسهامه فى طبع هذا الكتاب ورعايته للرفيع الراقى

من الفنون والآداب.

قاسم مسعد عليوة

